

أيض أسود



الشيخ
علي حسن غلوم



أبيض ... أسود

الحياة الزوجية
مشكلات وحلول

بقلم الشيخ
علي حسن غلوم علي

تقديم سماحة الشيخ
أمين النصار

مشرف مركز آل يس
للاستشارات الأسرية والتربوية



جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م

من مطبوعات

مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت

alwalaa.com

Email: alwalaa66@yahoo.com



مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

محتويات الكتاب

- تقديم - بقلم سماحة الشيخ أمين النصار ٧
- ● مقدمة المؤلف ١١
- ١. الواقعيّة في الاختيار ١٧
- ٢. معضلة سن الرشد ٢٧
- ٣. الزواج غير التقليدي ٣٧
- ٤. ما بين العقد والزفاف ٤٥
- ٥. التواصل بين الزوجين ٥٣
- ٦. المعاشرة بالمعروف ٦٩
- ٧. التضحية خلق أصيل ٨١
- ٨. الجمود العاطفي ٨٩
- ٩. التفرعن والتثمر ٩٩
- ١٠. زوجي نكدي ١١٣
- ١١. ضيق الصدر ١٢١
- ١٢. القاعدة الذهبية ١٣١
- ١٣. العِزّة الكاذبة ١٤٥
- ١٤. العفو والتسامح ١٥٧
- ١٥. عقلية المغالبة ١٧١
- ١٦. نشوز الزوجين ١٧٧

١٨٩	١٧ . فراقك عيد
٢٠١	١٨ . طَلَّقْتَكَ نفسي
٢١١	١٩ . مُتْعَةُ الطَّلَاق
٢١٧	٢٠ . النموذج النبوي
٢٢٧	٢١ . الطلاق الناجح
٢٣٣	٢٢ . بين القانون والشرع
٢٤١	٢٣ . طلاق أبناء الطلاق
٢٤٧	٢٤ . الشريعة أم الحكمة؟
٢٥٥	٢٥ . البهتان العملي
٢٥٩	٢٦ . زوجتي العزيزة
٢٩٣	٢٧ . زوجي العزيز
٣٢٥	• مصادر الكتاب



تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى
الله على أشرف الأنبياء والمرسلين وسيد الخلق أجمعين
محمد وآله الطيبين الطاهرين الهداة الميامين.

قال الله «سبحانه وتعالى»: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ
دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١).
لا يخفى على كل ذي لب صعوبة إيجاد حلول ناجعة ومُحكمة
وفعّالة للمشكلات ذات الصبغة الاجتماعية، لاسيما فيما
يخص الخلافات التي تقع بين المتزوجين أنفسهم لأسباب

متعددة، وفي مقدمتها الابتعاد عن الواقع وغياب الوازع الديني.

ولأنه لا توجد هناك نظرية متكاملة باستطاعتها حل مثل هذه المشاكل؛ فإنك ستكتشف أن لكل معالج إجتماعي طريقة خاصة في حل كل مشكلة تُعرض عليه، فقد يجد صاحب المشكلة نفسه في حيرة من أمره إذا استشار على سبيل المثال ثلاثة من المعالجين الاجتماعيين، لأنه سوف يكتشف أن لكل واحد من هؤلاء المعالجين طريقة تختلف عن الآخر في حل مشكلته والسبب كما أشرنا إليه آنفاً هو أنه لا توجد نظرية متكاملة وشاملة.

وخلال عملنا في (مركز آل يس للاستشارات الأسرية والتربوية) مرت علينا العديد من قضايا المجتمع كالاخلافات الزوجية وقضايا الطلاق والمشاكل الأسرية بين الوالدين والأبناء، وبين الأبناء أنفسهم وغيرها من المشكلات الفردية والاجتماعية؛ فوجدنا أن في الاسلام حلاً مناسباً لتلك الخلافات بشرط الايمان به والعمل بجد بتوصياته.

وقد يتساءل القارئ الكريم ويقول: هل أن الإسلام يحمل

في طياته نظريات تساعد على حل مثل تلك المعضلات؟! فنقول: بأن الاسلام لم يضع نظرية خاصة لتلك المشكلات فحسب، بل أنه قد وضع عدة نظريات لحل أعقد المشاكل الاجتماعية والنفسية كذلك، وقد تم بيان هذه الحقائق في كتاب (علم النفس القرآني) الصادر عن مركز الدراسات القرآنية، وتم أيضاً التطرق إلى بعض من تلك النظريات في المحاضرات المعنونة بـ (الإشارات النفسية في القرآن الكريم) والموجودة على موقع اليوتيوب.

وهذا الكتاب الذي بين يديك -عزيزي القارئ- هو محاولة جادة في هذا الطريق حيث سعى سماحة الشيخ المؤلف -حفظه الله ورعاه- لبيان معالجة الإسلام للمشاكل الاجتماعية والأسرية بشكل واقعي والابتعاد عن المثاليات، أخذاً بعين الاعتبار مسألة الزمان والمكان في حل مثل تلك المشكلات.

ونؤكد ختاماً على أن المجتمع إذا أراد أن يخرج من مشكلاته الفردية والاجتماعية؛ فعليه أن يعود إلى الحق عز وجل، وأن يلتزم بما جاء عنه «تعالى» في كتابه العظيم وسُنّة

رسوله الكريم وآله المعصومين عليه وعليهم السلام أجمعين.
وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين....

أمين النصار

مركز آل يس للاستشارات الأسرية والتربوية

دولة الكويت - أكتوبر ٢٠٢١



مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي أحلَّ النكاح، وحرَّم الزَّنا والسَّفاح،
والصلاة والسلام على محمد وآله سادات البطاح.. قال
جلَّ من قائل في كتابه الكريم: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ
وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ
اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١)، وقال «تعالى»: ﴿وَهُوَ
الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ
قَدِيرًا﴾^(٢).

(١) سورة النور: ٣٢.

(٢) سورة الفرقان: ٥٤.

وعن رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه، إن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)^(١). وعنه «صلى الله عليه وآله»: (النكاح سنتي، فمن رغب عن سنتي فليس مني)^(٢).

وقد قال «تعالى» في بيان جانب من فلسفة الزواج: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣).

هذا الكتاب بمثابة إضافة إلى المكتبة العربية في ما كتب من قبل في إطار العلاقة الزوجية والتحديات التي تواجهها، وكيفية إدارة بيت الزوجية، وسبل تطوير العلاقة بين الأزواج، ومعالجة الأخطاء والسلبيات، وما يستتبع الطلاق من آثار، والسبيل لإدارة ملف الطلاق بصورة أفضل على الرغم من بعض السلبيات المترتبة عليه، وما إلى ذلك من موضوعات وتفاصيل بعضها بالغ الأهمية، وبعضها كمالي، وبعضها الآخر محاط بالفهم أو التطبيق الخاطيء.

(١) الحر العاملي: وسائل الشريعة، ح ٢٥٠٧٤.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ١٠٣.

(٣) سورة الروم: ٢١.

بالطبع، فإنَّ ما قدَّمته المكتبة العربية في هذا الإطار متنوِّع بين الخطاب الاجتماعي والديني والنفسي والتربوي وحتى الاقتصادي، وهذا الكتاب يحاول أن يعالج جوانب معدودة من هذا الملف بصيغة اجتماعية واقتصادية ونفسية وتربوية، ولكن عمدته في الخطاب هو الخطاب الديني بلحاظ تخصُّص المؤلف، وهذا ما ينبغي أن يلحظه القارئ الكريم وهو يقيِّم الكتاب أو يدوِّن عليه الملاحظات بما يخدم لاحقاً مشروع التوعية الاجتماعية ذات العلاقة، علماً بأنَّ الكتاب في عناوينه المختلفة جاء كحصىلة محاضرات وخطب وكتابات تمَّ تقديمها خلال ٢٥ سنة، مع شئ من التصرُّف بما يناسب المقام، ولذا فهو لا يسعى لتقديم أطروحة متكاملة، ولا لمعالجة كل السلبيات، ولا لتقديم الحلول الكاملة والشاملة والواقية لما تواجهها مؤسسة اجتماعية حساسة هي مؤسسة الأسرة التي تمثِّل نواة بناء أي مجتمع، فالكتاب في عناوينه المتعدِّدة عبارة عن مجموعة إضاءات تسعى لخدمة المشروع، لا أكثر، وحاولت أن أرَتب عناوينه بحيث تكون البداية مع اختيار شريك الحياة، ثم فترة الخطوبة، فبيت الزوجية، ثم الطلاق وما بعده، على أنني

أضفت عنوانين في نهاية الكتاب وهما عبارة عن إصدارين صغيرين كانا من بواكير مؤلفاتي، وحَمَلَ الأول منهما عنوان (زوجتي العزيزة) والآخر (زوجي العزيز)، وقدمتهما لاحقاً بصورة سمعية مع إخراج موسيقي هادئ، وتم بثُّهما من قبل إحدى القنوات الإذاعية العربية، كما تمَّ استنساخه على أشرطة الكاسيت وتوزيعها، ولذا سيجد القارئ أنهما لا يتناسبان وترتيب العناوين في الكتاب، ولكن يشتملان على ما يخدم الهدف من هذا المؤلف... ثم اخترت للكتاب ككل عنوان (أبيض... أسود) ليمثِّل الجوانب المضیئة وتلك الأخرى القائمة في إطار العلاقة الزوجية.

ختاماً، أسأل الله «تعالى» أن يكون هذا الجهد محطَّ قبوله وعنايته، وأن يستفيد القارئ الكريم مما جاء فيه، ويسعدني تلقِّي الملاحظات التي من شأنها أن تُثري هذا العمل بما يعود بالفائدة على المستهدفين منه.

علي حسن غلوم علي

الكويت

٨ ربيع الأول ١٤٤٣ هـ / ١٤ أكتوبر ٢٠٢١





الواقعية في الاختيار

تعرّض القرآن الكريم في سورة الأحزاب لجانب من قصة طلاق زينب بنت جحش ابنة عمّة النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» - ووالدتها أميمة بنت عبدالمطلب - من زيد بن حارثة، ربيب رسول الله، لغرض بيان حكم شرعي، ومعالجة خلل مفاهيمي، وحل إشكالية اجتماعية مسّت شخص رسول الله، وذلك في قوله «تعالى»: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ
وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿١﴾.

• قراءة من زاوية مختلفة :

عادةً ما يتم تناول هذه القصة من جانبين:

١. إباحة زواج الرجل من زوجة ربيبه بعد طلاقها منه.

٢. نفي الطبقية في الزواج من المنظور الإسلامي.

إلا أنَّ الجانب الآخر الذي يحتاج إلى معالجة أيضاً -بحسب دلالة الأخبار التاريخية وروايات أسباب النزول- هو بقاء تأثير الواقع الطبقي على طبيعة العلاقة بين السيدة زينب وزوجها، ذلك الواقع الذي لم تستطع هي أن تتجاوزه وتتغافل عنه، ولو كان الزواج بأمر رسول الله، الأمر الذي يُرشد إلى أن من مسئولية الخطاب الديني عدم الاستغراق في عالم المثال عند تقديم التصوّر الإسلامي عن العلاقات الاجتماعية، وكأنّ هذا الخطاب يفرض سلفاً أنّ أفراد المجتمع قد بلغوا من النضج الفكري والشفافية الروحية والسمو الأخلاقي مرتبةً تذوب معها كل العناوين التي يتلبّس

بها الأفراد، وتغدو كل المؤثرات المحيطة بهم عديمة الأثر، أو أنهم يعيشون أصلاً في المجتمع الفاضل الذي لا يُكدر صفو الحياة فيه شئ.

• نموذج زواج جويبر:

في كتاب (جامع أحاديث الشيعة) عن أبي حمزة الثمالي -في حديث- قال: (قال أبو جعفر «عليه السلام»: إن رجلاً كان من أهل اليمامة يُقال له: جويبر، أتى رسول الله «صلى الله عليه وآله» منتجعاً للإسلام، فأسلم وحسن إسلامه، وكان رجلاً قصيراً دميماً محتاجاً عارياً، وكان من قباح السودان أي سود البشرة، إلى أن قال: (وإن رسول الله «صلى الله عليه وآله» نظر إلى جويبر ذات يوم برحمة له ورقة عليه فقال له: يا جويبر، لو تزوجت امرأةً فغضفت بها فرجك وأعانتك على دنياك وآخرتك، فقال له جويبر: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، من يرغب في؟ فوالله ما من حسب ولا نسب ولا مال ولا جمال، فأية امرأة ترغب في؟ فقال له رسول الله «صلى الله عليه وآله»: يا جويبر، إن الله قد وضع بالإسلام من كان في الجاهلية شريفاً، وشرف بالإسلام من كان في الجاهلية

وضيعاً، وأعزّ بالإسلام مَنْ كان في الجاهلية ذليلاً، وأذهب بالإسلام ما كان من نخوة الجاهلية وتفاخرها بعشايرها وباسق أنسابها، فالناس اليوم كلهم أبيضهم وأسودهم وقرشيّهم وعربيّهم وعجميّهم من آدم، وإن آدم خلقه الله من طين، وإن أحبّ الناس إلى الله أطوعهم له وأتقاهم، وما أعلم يا جوبير لأحد من المسلمين عليك اليوم فضلاً إلا لمن كان أتقى لله منك وأطوع، ثم قال: انطلق يا جوبير إلى زياد بن لبيد فإنّه من أشرف بني بياضة^(١) حسباً فيهم، فقل له: إني رسولُ رسولِ الله «صلى الله عليه وآله» إليك، وهو يقول لك: زوّج جوبيراً بنتك الدلفاء). وحيث استهجن زياد ذلك راجع النبي فقال له: (يا زياد، جوبير مؤمن، والمؤمن كفو المؤمنة، والمسلم كفو المسلمة، فزوّجه يا زياد ولا ترغب عنه)^(٢).

هذه الحادثة تُقدّم عادةً في الخطاب الإسلامي كنموذج

(١) ذكر القلقشندي في قلائد الجمان: إن البياضية بطن من طيئ القحطانية. وهم اليوم قبيلة كبيرة تسكن في مصر بين العريش ومنطقة بئر العبد، ومنهم قسم كبير في منطقة الإسماعيلية، ولهم امتداد في فلسطين في قرية حتى وقرية خربة البياضية في منطقة يافا.

(٢) البروجردى: جامع أحاديث الشيعة، ج ٢٠، ص ٦٩-٧١.

لاعتبار الكفاءة الدينية الشرط الوحيد للجمع بين الشاب والفتاة.. فهل يصلح نموذج جويبر ليُقَدِّم -اليوم- في مجتمع كالمجتمع الكويتي على أنه مثال وأسوة عملية؟

الظروف تغيّرت، ونظرة الطرفين -الشاب والفتاة- إلى الزواج وإلى المعايير التي ينبغي توفّرها في الطرف الآخر اختلفت، وهكذا بالنسبة إلى النظرة إلى طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، ودور المرأة في الحياة الزوجية، ومفهوم تعدّد الزوجات، ونكاح الإماء، كلها قد تغيّرت تماماً.

إذا كانت المرأة المسلمة في الماضي تتفهّم أن عدداً كبيراً من أبناء علي «عليه السلام»، وكل أبناء الإمام موسى الكاظم «عليه السلام» هم ثمرة نكاح الإماء (مُلك اليمين)، وأن أمهات الأئمة «عليهم السلام» من بعد الإمام الصادق، وهم الكاظم والرضا والجواد والهادي والعسكري والمهدي (أمهات ولد) أي إماء، وأن والدته إبراهيم ابن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أي السيدة مارية القبطية كانت أم ولد، لأن أصل المسألة كانت مقبولة اجتماعياً، إلا أن المرأة اليوم تستصعب تصديق ذلك والإقرار به، وما ذاك إلا لتغيّر النظرة إلى مسألة نكاح الإماء.

• أمثلة تاريخية :

وللدلالة على تغيّر مفهوم آخر متعلّق بمسألة الزواج، سنرجع إلى بعض كتب الأنساب لنقدّم من خلالها الأمثلة التالية المتعلقة بتعدّد زيجات النساء في ذلك الزمان دون حرج، ومن رجالٍ ينتمون إلى نفس البيت أو بيوتات أخرى، ولربما تكون بين تلك البيوتات صراعات سياسية كبيرة:

١. لبابة ابنة عبد الله بن عباس بن عبدالمطلب: كانت زوجة لعلي بن عبد الله بن جعفر الطيار، ثم لإسماعيل ابن الصحابي طلحة بن عبيدالله التيمي، ثم فارقها؛ فتزوّجها محمد بن عبيد الله بن العباس^(١).

٢. أم إسحق بنت طلحة بن عبيدالله التيمي: كانت زوجة للإمام الحسن المجتبي، وبعد استشهاده صارت زوجة أخية الإمام الحسين، ثم بعد استشهاده صارت زوجة لعبدالله بن محمد بن عبد الرحمن ابن الخليفة أبي بكر^(٢).

٣. لبابة ابنة عبيد الله بن عباس بن عبدالمطلب: كانت زوجة لأبي الفضل العباس ابن أمير المؤمنين علي،

(١) الزبيري: نسب قریش، ج ١، ص ١١.

(٢) البغدادي: المحبر، ص ٤٤٢.

وبعد استشهاده بكر بلاء تزوجت من زيد ابن الإمام الحسن المجتبي، ثم تزوجت من الوليد بن عتبة بن أبي سفيان بن حرب الأموي^(١).

• اعتبارات عديدة :

هذا يعني أن قضية الزواج في عصر النبي، بل إلى أوقات قريبة، كانت أهون بكثير مما هي عليه الآن، فالاعتبارات التي تأخذها الفتاة - اليوم - وتضعها لترسم من خلالها صورة زوج المستقبل الذي تخطط أن تعيش حياة سعيدة معه فيها الكثير من التفاصيل، وتتجاوز مجرد الدين ورفعة النسب ووفرة المال، وتتعدّها إلى الوسامة والبنية العضلية والأناقة واللباقة في الحديث والتلاقي في الأمزجة وطبيعة الوظيفة ومكان السكن وجنسية الزوج -مسقط رأسه- وشهاداته الدراسية والفارق العمري بينهما، والقناعات الفكرية، والمزاج النفسي، والعناية بالماركات الثمينة، وتفاصيل حفل الزواج والألوان التي يفضلونها ورؤية الشاب بخصوص الإنجاب والسفر إلى الخارج للترفيه كل عام، ولربما دخلت

(١) الزبيرى: نسب قریش، ج ١، ص ٧٩.

مسألة التقليد والمرعية على الخط.. والقائمة تطول وتطول.

• التزام الواقعية لا التطبيقية:

نعم، إذا كانت الفتاة تملك نضجاً عقلياً ونفسياً وقوة إرادة وصبر وقابلية للتغيير والتأقلم مع واقعها الجديد الأقل مستوى بشكل ملحوظ والمخالف لما اعتادت عليه، وعدم التأثير بالبيئة الاجتماعية التي تحيط بها، فيمكنها حينذاك تجاوز الفروقات، وإنجاح تجربة الزواج، وإلا فسيبقى الخطاب الديني المحفّز لتجاوز الفروقات خطاباً أني التأثير ثم يخبو بريقه لتجد المرأة نفسها أمام واقع صعب لا يمكنها تقبله والتعامل معه، وليكون مصيرها لاحقاً التعاسة، سواء نتيجة الطلاق أو بغير ذلك.

هذه ليست دعوة لتثبيت التطبيقية والاهتمام بالفروقات الشكلية، بل دعوة للتعامل بواقعية، فلو نجحنا في رفع أفراد المجتمع إلى المستوى المطلوب إيمانياً، وعالجنا القضية من الأساس بأن زرعنا - تربوياً - في أبنائنا القيمة الحقيقية للإنسان، وأن لا فرق بين مسلم ومسلم بالقومية واللون والحسب والمال، وأن المائز الحقيقي هو التقوى، فيحق لنا

حينذاك أن نتحدّث عن رفض أي عنوان يؤخذ بعين الاعتبار
سوى الكفاءة في الدين.

وهكذا، لو كان الشباب - ذكوراً وإناثاً - كمصعب بن
عمير الذي تنازل عن كل مغريات الدنيا وترف الحياة، لهانَ
الأمر، إلا أنّ واقع الحال يحكي عن أن نموذج مصعب يمثّل
الصورة الاستثنائية لواقع الشباب اليوم... وتعدّد حالات
الطلاق بكثرة ولأسباب سخيفة يؤكّد ما سبق.



معضلة سن الرشد

البلوغ مستوى واحد، تغيّرات فسيولوجية تحدث عند الفرد، فيصبح بالغاً، وبالتالي مكلفاً... أما الرشد فمستويات متعدّدة، ويرتبط بنواحي مختلفة من حياة الفرد، ولا يتحقّق بالضرورة مع البلوغ.

في مسألة أملاك اليتيم لم يكتفِ التشريع في الآية الشريفة التالية بتحقيق البلوغ كي نقدّم لليтим أملاكه، فيتصرف بها كما يشاء، بل يستمر الحجر وتستمر الوصاية إلى التأكّد من تحقّق الرشد (المالي) عنده، قال الله «سبحانه وتعالى»: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ

فَإِنْ أَنْسَلْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴿١﴾.

وقد يرشد الفرد من الناحية المالية، إلا أن رشده الاجتماعي لا يتحقق في نفس الوقت، وقد يملك الرشد فيهما، ولكنه غير راشد سياسياً... وهكذا.

بل إن الرشد في الإطار الواحد مستويات، وهذا ما نلاحظه في قول النبي موسى بن عمران «عليه السلام» للعبد العالم: ﴿هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (٢).. لماذا طلب منه ذلك وهو من هو؟ لأن ذلك الشخص: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ (٣). أي أن النبي موسى «عليه السلام» طلب منه أن يعلمه من ذلك العلم بما يحقق له مستوى أعلى من الرشد، لأننا لا نشك أنه كان يملك رشدًا على المستويات المختلفة، ولكنه أراد الاستزادة.

• ضرورة التغيير:

The Lancet مجلة طبية أسبوعية، وهي من بين أقدم

(١) سورة النساء: ٦.

(٢) سورة الكهف: ٦٦.

(٣) سورة الكهف: ٦٥.

وأشهر المجلات الطبية العامة في العالم. تأسست في عام ١٨٢٣ من قبل جراح إنجليزي أطلق عليها اسم أداة جراحية (المشرط). ذكرت هذه المجلة أن فريقاً من العلماء يعتبرون أنه بات من الضروري إعادة تحديد سن المراهقة وبالتالي سن الرشد، للتأكد من أن القوانين الحالية لا تزال ملائمة وفق التصنيف القائم.

تقول سوزان ساوير، كبيرة الباحثين في الفريق ومديرة مركز صحة المراهقين في مستشفى الأطفال الملكي بملبورن: (على الرغم من أن كثيراً من الامتيازات القانونية للبالغين تبدأ في سن ١٨ عاماً، إلا أن إدراك وفهم البالغين لأدوارهم ومسئولياتهم يبدأ عادة في سن متأخر)!

الملفت في الأمر أن تأخر سن الرشد بحسب هذه الدراسة يقابله تقدّم سن بداية البلوغ، تقول الدراسة: (عادة ما تبدأ هذه المرحلة عند حوالي سن ١٤ عاماً، لكنها تراجعت مع تحسّن الحالة الصحية والغذائية بدرجة كبيرة لا سيما في الدول المتقدمة لتبدأ من سن ١٠ أعوام تقريباً). هذا يعني أن الفارق ما بين بداية البلوغ وتحقيق الرشد

الاجتماعي والاقتصادي ازداد اتساعاً: (تأخر الزواج والإنجاب والاستقلال الاقتصادي يعني أن «شبه التبعية» في مرحلة المراهقة قد اتّسع.. وبالتالي فإن هذا التغير الاجتماعي في حاجة إلى تغيير السياسة الاجتماعية.. وأن الفترة من ١٠ إلى ٢٤ عاماً تتناسب بدرجة أفضل مع نمو المراهقين في الوقت الحالي).

في الغرب كان سن ١٨ هو سن الرشد، ومن يبلغه يستقلّ في حياته ويخرج من منزل أبويه، أما الآن فتقول هذه الدراسة: (في بريطانيا يبلغ متوسط عمر مغادرة الشباب والفتيات المنزل ٢٥ عاماً تقريباً)^(١)... لماذا؟ لأن سن الرشد تأخر، أي القدرة على الاستقلالية تأخرت.

نحن في مجتمعاتنا الإسلامية لا نواجه مسألة الخروج واستقلالية الأبناء بهذه الصورة، ولكن ما جاء في هذه الدراسة من اتساع الهوة بين البلوغ وسن الرشد ينطبق على مجتمعاتنا بشكل كبير.

وإذا تأخر سن الاستقلالية في المجتمعات الغربية،

فإنَّ سن الرشد الاجتماعي الذي يهيئ الشاب والشابة في مجتمعاتنا للزواج ومن ثَمَّ النجاح في هذا المشروع صار متأخراً أيضاً، وهو ما يؤثر على مستقبل الزيجات المبكرة، وتزايد حالات الطلاق، وآثار ذلك على الجيل الذي يليه.

أي لو أننا -وفق المعطيات الحالية على المستوى التربوي والاجتماعي- صرنا نطالب الأسر بتزويج الفتاة بمجرد بلوغها، بل حتى قبل ذلك، كما في المروي عن الإمام الصادق «عليه السلام»: (من سعادة المرء أن لا تطمث ابنته في بيته)^(١)، فلو صحَّ صدورها عنه «عليه السلام» فهي مناسبة لزمانه لا لهذا الزمان، إلا إذا تغيّرت المعطيات التربوية والاجتماعية وعادت لما كانت عليه حينذاك، وهو ما سيؤدّي إلى تغيّر سنّ الرشد لدى الفتى والفتاة ليعود إلى ما كان عليه مسبقاً.

الرُّشد الاجتماعي من المسائل المتحرّكة التي تتأثّر بعوامل عديدة، وعدم الالتفات إلى هذا الأمر والتعامل معه وفق محدّدات نصيّة جاءت في ظروفها الخاصة، أو وفق قوانين سنّت قبل عقود، سيؤدّي إلى نتائج سلبية، وهو ما

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٦١.

يخالف الرشدَ الفقهيَّ والتشريعيَّ والأخلاقيَّ المطلوب توافره عند أصحاب الخطاب الديني، وعند أهل الفتوى والتشريع، وعند التربويين وأولياء الأمور، الأمر الذي يستدعي دراسة المسألة من خلال الواقع، أو تغيير الواقع ليعود الوضع إلى ما كان عليه في الماضي.

ويبقى السؤال: لماذا اتَّسعت الهوة في مجتمعاتنا بين سن التكليف المتحقق بالبلوغ وبين سن الرشد؟ وهل لهذا الأمر سلبيات أخرى سوى المرتبطة بالزواج والطلاق؟ وما السبيل لمعالجة الخل؟

• عوامل مؤثرة:

أما بالنسبة إلى العوامل المؤثرة في تأخر سنّ الرشد في مجتمعتنا -وتشترك معنا في بعضها كثير من المجتمعات الأخرى- فيمكن وصفها كالتالي:

١. رفاهية العيش، بحيث صار الاتكال على الآخرين العاملين على تقديم الخدمة كبيراً، بدءاً من العاملات في المنزل، مروراً بالسائق، وانتهاءً بموظفي توصيل الطلبات (الدليفرى) لمشتريات الأطعمة والألبسة والإكسسوارات

والأجهزة المنزلية والألعاب والذهب وعموم الحاجيات الاستهلاكية وخدمة إصلاح السيارات وتبديل الإطارات والتأمين، بل حتى الهدايا المقدّمة في المناسبات وغير ذلك.

٢. انخفاض نسبة الاحتكاك بالمجتمع الحقيقي المتنوّع في تركيبته، مما يؤدي إلى انخفاض الخبرات الحياتية والتجارب الاجتماعية والاقتصادية. فالتسوّق عبر الإنترنت -على سبيل المثال- عامل من عوامل خفض نسبة الاحتكاك المباشر بالعنصر البشري على اختلاف ثقافته وأمزجته وأساليبه وطريقة تفكيره وأسلوب التعامل معه، وهذا بدوره يُضعف القدرة على التفاهم بالطريقة السليمة وامتلاك المهارة المطلوبة لتقييم الناس والتعامل معهم وفق ذلك، كما وأنه يؤدي إلى ضعف المهارة والخبرة (التجارية) ولو في حدود التعامل البسيط المتمثّل في شراء المواد الاستهلاكية اليومية.

٣. ارتفاع منسوب الأنا والتمحور حول الذات، مما يجعل هموم الآخرين والأحداث الدائرة من حولهم في الوطن وفي العالم، سواء ما له علاقة بعالم السياسة أو الاقتصاد أو

الدين أو الأمن، آخر اهتمامات كثير من الشباب، إذ ينصبّ جلّ اهتمامهم على ما يُشبع حاجات (الأنا) الأساسية والكمالية. ولا يخفى ما لهذا العامل من تأثير على التفاعل مع ما هو خارج دائرة (الأنا)، ومن ثمّ التأثير السلبي على الخبرات والمعلومات والمهارات الخاصة بالمجالات المختلفة للحياة، أي التأثير السلبي على (الرشد) المطلوب تحقيقه لدى الشباب اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً .. إلخ. بل إن الأمر قد يصل بالبعض إلى مستوى البلادة في الشعور تجاه الأزمات المحلية والإقليمية والعالمية ما لم تمسه كشخص على وجه التحديد.

٤. الانغماس في العالم الافتراضي المتمثل في الإنترنت بكل تفريعاته، كالتعارف والمحادثة والتواصل الاجتماعي وتكوين العلاقات والصداقات، ومن قبيل اللعب والترفيه ومشاهدة الأفلام والمسلسلات، والتعلّم والتدريب، وغير ذلك، مما يُفقد الشاب -وبنسبة كبيرة- عنصر الاحتكاك والاختلاط الحقيقي والمباشر مع الناس، ويدفعه نحو الانعزال الذي سيُسهم في تأخّر الرشد لدى الفرد.

وكمثال، فإن الألعاب الشعبية الجماعية -في الماضي-

وإن كانت ذات طبيعة ترفيحية لهوية، ولكنها في ذات الوقت كانت خبرة من خبرات الحياة، وعنصر فاعل ومؤثر في تحقيق الرشد في سن مبكرة.

وما لم يتم تدارك هذا الخلل والسيطرة على العوامل السلبية المؤثرة في تأخر سنّ الرشد، فإن النتيجة المتوقعة بشكل منطقي أكثر سلبية حين يأتي الجيل اللاحق الذي سيكون معتمداً على الجيل الشاب الحالي في تحقق الرشد لديه، إذ أنّ فاقد الشئ لا يُعطيه.

• البحث عن حلول:

بعد هذه الجولة القصيرة والمختصرة بين أسباب تأخر سنّ الرشد، نتوقف عند الحلول:

١. ضرورة الاعتراف بوجود المشكلة ودراسة أسبابها وآثارها دراسةً قائمة على أسس علمية وواقعية، سواء من قبل الجهات والمؤسسات الرسمية أو الأهلية، كجمعيات النفع العام والشخصيات الأكاديمية.

٢. تقديم الحلول والرؤى المناسبة لمعالجة مواطن الخلل، وتنفيذ برامج عملية ومنهجية، تتضمن عملية إعادة

تشكيل للبرنامج العام للفرد، تستهدف التقليل من عوامل العزلة، وزيادة منسوب عوامل كسب الخبرات الحياتية المتضمنة للأنشطة والفعاليات الدينية كالالتزام بحضور صلاة الجمعة على الأقل، وممارسة الرياضات الجماعية، والرحلات الترفيهية، والعمل التطوعي -لا سيما الجماعي منه- وأمثال ذلك.

٣. حملة إعلامية وتوعوية مكثفة ومؤثرة تقوم بها الجهات الرسمية والأهلية بغرض الحث على التعامل مع هذه المعضلة بشكل مسئول وجاد.

٤. تحميل الأبناء بعض المسئوليات في إطار متطلبات الأسرة، والحرص على إكسابهم المهارات المختلفة في ما له علاقة بذلك.

٥. إحياء الدورات التدريبية المهارية ودعمها، كمهارات الإسعافات الأولية، والتعامل مع الكوارث، وأساسيات الحياة الزوجية، وتربية الأطفال، ورعاية كبار السن، وأمثال ذلك.

٦. إعادة الحياة لحصص الاقتصاد المنزلي والزراعة والنجارة وغيرها في إطار التعليم الإلزامي المدرسي.



الزواج غير التقليدي

كل حالة زواج معرضة للاهتزاز، والفسل، ومواجهة حالة من المد والجزر في العلاقة.. أو الاستمرار والنجاح.

وهناك آراء وأفكار عديدة ترتبط بعوامل فشل حالات الزواج، منها ما تبين صحتها، بينما يفتقر بعضها إلى الدليل، كما أثبتت التجربة المتكررة خطأ البعض الآخر.

من بين هذه الآراء والأفكار المطروحة على طاولة النقاش بقوة: الطريقة التقليدية في الزواج والتي تتم من خلال اختيار الوالدين.. هل هي فعلاً من أسباب، بل من أهم أسباب فشل الزواج؟ وهل الزواج الناشئ عن علاقة حب عاصفة تربط بين الطرفين، ولربما على الطريقة

السينمائية، وكما في الروايات العاطفية هو البديل الناجح؟ بالطبع، للمسألة بُعد شرعي، ولكنني سأحدث حول الموضوع بغض النظر عن هذا البُعد.

من دون شك فإن وجود ارتباط عاطفي قوي بين الزوجين أمر مهم لبناء بيت زوجية سعيد وقوي وقادر على مواجهة الظروف والتحديات التي تعصف به.. ولكن هل المشاعر القوية التي تسبق الزواج كفيّلة بتحقيق هذه العلاقة القوية في مرحلة ما بعد الزواج؟ لا أحدث هنا عن الشعور بالإعجاب والانجذاب من طرف واحد أو من طرفين.. كأن تكون هناك رغبة بالارتباط بالزواج.. وإنما أحدث عن وجود علاقة، وحب، وغراميات.

وفي استبيان قام به أستاذ علم الاجتماع د. أسامة عبدالباري في مصر على ١٥٠٠ أسرة وجد فيه أن أكثر من ٧٥٪ من حالات الزواج عن علاقة حب مسبقة والتي تتبّعها - انتهت بالطلاق، بينما كانت تلك النسبة أقل من ٥٪ في الزيجات التقليدية. بالطبع، لا أدري مدى اقتراب هذه النتائج من واقعنا في الكويت، ولكن يبدو الأمر منطقياً، لأسباب:

١. الاندفاع العاطفي يُعَمِّي عن رؤية عيوب ومساويء الطرف الآخر.. (وعينُ الرُّضا عن كلِّ عيبٍ كليلة) .. حتى إذا ذهبت السُّكرة وجاءت الفكرة، تجلَّت العيوب والفروقات، فصارت قراءة كلِّ طرف للآخر مختلفة، والمشاعر مختلفة.. ثم تبدأ الانتقادات، لتبرز بعد ذلك المشاكل الكبيرة، لأن التوقّعات كانت مختلفة تماماً.. ولذا تكون ردّة الفعل قوية.

ولنأخذ بعين الاعتبار أيضاً أن كل طرف في مرحلة ما قبل الزواج يحاول إبراز أجمل ما عنده، أو يتصنّع الكثير من الأمور كسباً لرضا الآخر. أي أن الصورة التي يُظهرها كل طرف للآخر تكاد ترقى إلى المثالية، ثم تظهر الصورة الحقيقية بعد الزواج وتظهر معها المشكلات.

٢. المشاعر الجيّاشة والحب العاصف قبل الزواج لا يمكن أن يستمر على نفس الوتيرة.. هذه هي النفس البشرية.. وعند الاصطدام بمشكلات الحياة ومسؤولياتها الكثيرة، تتحول الحياة من حلم إلى حقيقة.. وتخبو تلك المشاعر وتبرد تدريجياً.. ولربما تختفي تماماً.. وحيث كانت هي الرابط بين الطرفين، أصبحت العلاقة مُعرّضة للتدمير مع أية هزة قد تصيبها.

٣. كل ما هو جميل ورائع في البداية -إن بُني على العاطفة القوية فقط- فإنه سيصبح بمرور الوقت أمراً عادياً، ويبدأ بفقدان جمالياته، هذا إن لم يتحوّل إلى شيء قبيح. بخلاف ما لو كانت قراءتنا وتقييمنا للأمور قد تمّت بشيء من العقل والقناعة الفكرية، وحينها إذا تراكمت التجارب الجميلة فسيكون ذلك -غالباً- سبباً لنشوء علاقة قوية وعاطفية.

٤. تقديم كل طرف مصلحة الآخر ورغباته في المرحلة السابقة على الزواج لا تستمر عادة في المرحلة اللاحقة.. ومن هنا عندما تأتي المقارنة بين السابق واللاحق، تشتمل الخلافات -على إثر ذلك- بقوة.

٥. الخلط بين الرغبة الغريزية وبين الحب.. وهذه الحالة متكررة بشكل كبير.. ولذا بمجرد وقوع الزواج وقيام هذا الطرف أو ذاك بإشباع هذه الغريزة، تبرد العلاقة، لأن من طبيعة الغريزة أنها متى ما أشبعت خمدت. هل هذا يعني سلب حق الطرفين في اختيار زوج المستقبل؟

أبداً، بل إن الزواج نفسه يُعدُّ باطلاً إن لم يتمّ -ولو لاحقاً- برضا الفتاة لبطلان العقد.. فالإيجاب في عقد الزواج يكون

منها، لا من ولي الأمر.. وليُّ الأمر -بحسب فتوى مَنْ يرى ولايته على الفتاة البالغة والراشدة- إنما يُمضي رضاها.

• البديل الناجح:

هل الزواج التقليدي هو البديل الناجح؟ ربما يكون كذلك ولكن بشروط، وهو أمر يحتاج إلى معالجة في خطبة منفردة بإذن الله. الذي يجب أن يَنْتبه إليه الشباب أنَّ عاطفتهم قوية جداً، ومن هنا فإنَّها تُغطِّي على كثير من البديهيّات والحقائق التي يراها الآخرون، مما يجعل الصورة التي يرونها مختلفة عن تلك التي يراها الآخرون.. وهذا يستدعي منهم:

١. عدم التفرد بالرأي.

٢. أن يُفسِّحوا المجال لرأي الآخرين، لاسيما لأصحاب التجربة والرأي القائم على الدليل.

٣. أن يتفهّموا خلفيات الرأي المخالف، ولا يعتبروه موقفاً شخصياً أو حالة من التحدي.

وأما الرسائل التي أوجَّهها إلى أولياء الأمور حول كيفية تغيير هذا الواقع:

١. عليهم إدراك أن التعامل مع هذا الأمر صعب جداً،
ويستدعي الدقة والحذر.

٢. محاولة الإقناع وإثبات الرأي بالدليل.

٣. لربما مفتاح الحل يتمثل في التربية المسبقة التي
تجعل للوالدين قيمة كبرى لدى الأبناء، في احترام آرائهما
وتوجيهاتهما، وفي تحديد معالم العلاقة التي تدفع الأبناء
إلى المكاشفة الدائمة والتواصل الدائم ولومع أحد الوالدين
على الأقل، مما يجعل معالجة الأمور أولاً بأول أيسر من
معالجتها بعد استفحالها.

وأكثر التحديات التي يواجهها أولياء الأمور عندما يكبر
الأبناء يكون ناشئاً من إهمال أو تراخي أو غفلة أو ضعف
العلاقة في المراحل الأولى من حياتهم.

الزواج بناء يُراد له أن يكون قوياً راسخاً مستمراً، يقوم
على أساس العقل كما يقوم على أساس العاطفة.. العاطفة
القوية التي تسبق الزواج فتُقدم كلَّ شيء بأزهى صورة،
وتثقل الطرفين من عالم الواقع إلى عالم الأحلام لا يمكنها
لوحدها أن تبني علاقة زواج سليمة، إن لم نقل أنها من أسباب

الفشل في كثير من الأحيان.. والتجارب في هذا المضممار كثيرة.. ومن المفترض بالإنسان العاقل ألا يكرّر أخطاء من سبقه. من الجميل أن يختار الشاب زوجة المستقبل عن إعجاب بشخصية فتاة ودينها وأخلاقها وعقلها ومظهرها، فيطلب من والديه أن تكون هذه الفتاة شريكة حياته.. ومن الطبيعي أن ترغب الفتاة في أن ترتبط بشريك حياتها عن معرفة وإعجاب بشخصية شاب لربما زاملها في الدراسة أو في مجال من مجالات الحياة أو القرابة.. ولكن هذا شيء.. وإقامة علاقة زوجية على أساس عاطفيّ بحث، لا دور للعقل فيه، ولا واقعية في التقييم.. أو على أساسٍ غريزيّ متلبّس بلباس العاطفة، شيء آخر.



ما بين العقد والزفاف

المشهود في السنوات الأخيرة في مجتمعنا أن الفترة ما بين إجراء عقد الزواج ودخول الزوج بزوجته (الزفاف) فترة قصيرة جداً قد لا تتجاوز الساعات، فهل هذا يعد وضعاً سليماً؟ وهل لهذا الأمر علاقة بارتفاع نسبة الطلاق؟ بالطبع لا أتحدث هنا عن الزيجات التي يكون فيها الطرفان قد تعارفا لمدة طويلة من خلال علاقة القربى والرحم، أو التعارف من خلال أجواء الدراسة أو العمل، بل أتحدث عن الزيجات التي تتم بحيث لا يكون هناك تعارف مسبق، وهي الحالة الأكثر انتشاراً.

• أهمية الموضوع:

أهمية الموضوع تنطلق من عدّة عوامل تؤثر بشكل مباشر على استمرار العلاقة الزوجية، وهي كالتالي:

١. وفق طبيعة التربية والنظرة إلى العلاقة الزوجية في هذا العصر، فإنّ للزوجة رأياً ودوراً محورياً في الأسرة أكثر مما كان عليه في الماضي، مما يعني أن استمرار الحياة الزوجية ليس مرهوناً بقرار الزوج فقط، بل أصبحت الزوجة أيضاً تملك قرارها (القوي) في ذلك.

٢. غدا الاهتمام بالأطباع والفروقات الشخصية بين الزوجين أمراً حاضراً بقوة في تحديد مدى نجاح العلاقة الزوجية واستمرارها، إذ لم تعد المسألة علاقة رجل بامرأة، بل إنسان بإنسانة، لكل مشاعره ورغباته ومزاجه وذوقه وأحاسيسه، وعلى كل طرف مراعاة ذلك، وإلا كان الفشل في الحياة الزوجية هو المصير المرتقب.

٣. سهولة التخلي عن العلاقة الزوجية وبالتالي تفشّي الانفصال أو الطلاق. وهناك قضايا كثيرة تؤدي هذه الأيام إلى طلب الطلاق، منها أن تكتشف الزوجة أن زوجها

مدمن على المخدرات أو المسكرات، أو لديه علاقات مع نساء أخريات، أو أنه كان مجبراً على الزواج أو على هذه الزيجة على وجه التحديد، أو أن الزوج من النوع الذي لا يولي الحياة الزوجية أية أهمية، أو لاهتمامه بشلة الأصدقاء الذين يفضلهم عليها بمراتب، وهجرانه شبه المستمر لبيت الزوجية من خلال السفر الكثير للتنزه ومرافقة الأصدقاء، وقضاء الليل والنهار في الشاليهات والديوانيات... وما إلى ذلك من أمور.

وهكذا الأمر بالنسبة إلى الزوج الذي قد يكتشف أن زوجته مسرفة ووضعه الاقتصادي لا يتحمل نفقاتها، أو أنها باردة عاطفياً، أو أن لديها علاقة مسبقة مع أحد الشباب، أو تكون بذيئة اللسان، وقد يجدها غير مكترثة لمسئوليات الحياة الزوجية، أو أنها تابعة تماماً لأمها بحيث لا تستطيع الخروج من وضعها السابق لتصبح زوجة في بيت جديد، أو أنها واقعة تحت تأثير صديقاتها وتوجيهاتهن المدمرة في كيفية التعامل مع الزوج، أو يجدها مصرّة على عدم الحمل والإنجاب في السنوات الأولى من زواجها لرغبتها في إتمام دراستها... وما إلى ذلك.

• مرحلة انتقالية :

وهذا ما يجعل قِصر الفترة ما بين العقد والزفاف من الأسباب الرئيسة المؤدية إلى كثرة الطلاق، لذا بات من الضروري أن تكون هناك مرحلة انتقالية تبدأ من حين العقد إلى الزفاف قد تمتد لستة أشهر مثلاً بحيث تعطي وقتاً للطرفين للتعرف على بعضهما البعض أكثر، والاقتناع بالاستمرار في الحياة الزوجية، أو إنهاء الارتباط لعدم الانسجام، أو لعدم إمكانية تكوين علاقة طبيعية بين الطرفين لسبب أو لآخر. ولا شك أن طلاق البكر أهون من الثيب أو طلاق صاحبة الولد. ويمكن هنا ترتيب بعض الأمور بحيث تكون التكاليف المادية أقل، كأن يكون الحفل للزفاف لا للعقد، إلخ.

بالطبع هذا لا يعني أن كل الأمور ستتضح للطرفين، وستكشف كل الخبايا والأطباع بحيث يتم تجاوز سلبية قِصر المدّة تماماً، ولكن هذه الفترة ستُظهر -حتماً- أموراً كثيرة لن تتضح إن كانت الفترة ما بين العقد والزفاف مجرد أيام معدودات... وأيضاً هذا لا يعني أن لا سلبيات في إطالة فترة العقد، إلا أنها أهون بكثير من سلبيات قصر المدّة.

• وقود الحياة الزوجية :

ومن لطيف ما قرأت في هذا المجال -في إحدى منتديات شبكة الانترنت- ما عبّرت عنه إحدى الفتيات وقد سُئلت عن رأيها في إطالة هذه الفترة فقالت: (إن فترة الخطبة عبارة عن لحظات رومانسية يستمتع بها الخاطبان بأجمل أيام وهي وقود للحياة الزوجية).

• تقرير وزارة العدل :

في الدراسة المعدة من قبل إدارة الاستشارات الأسرية بوزارة العدل بدولة الكويت عن (أسباب الطلاق بين الكويتيين حديثي عهد بالزواج) كان على رأس قائمة أسباب الطلاق هذا البند: (اكتشفت أموراً لم تتبين لي قبل عقد القران) ... أكثر من ٦٤٪ من الإناث قالوا ذلك، و٥٠٪ من الذكور. تقول المشرفة على الدراسة: (تدل هذه النتائج على غياب بعض الحقائق عن أحد الطرفين أو كليهما قبل عقد القران وهو أمر لا يستهان به، فليس من السهل على المرء أن يكتشف أموراً بعد فوات الأوان خاصة إذا كانت على جانب كبير من الأهمية، وربما لو عرف بها الشخص قبل عقد

القِران لكان له موقف آخر. وقد يدل هذا الأمر أيضاً على الاستعجال في اتخاذ قرار الزواج وعدم التحري الكافي عن الطرف الآخر).

• مخرج تربوي وشرعي:

قد يقول البعض أنه بمجرد إتمام عقد النكاح بين الطرفين تصبح هذه الفتاة زوجة له، ولا يحرم عليه شئ من الاستمتاعات بينهما، ولذا قد يتحقق الدخول خلال فترة التعارف بعد العقد، الأمر الذي قد تترتب عليه بعض التعقيدات فيما لو وقع الطلاق قبل الزفاف، أو فيما لو توفي الزوج في هذه الفترة، وعندها ستكون الفتاة عند الناس بكرةً، بينما هي في الواقع خلاف ذلك، ولربما يحدث حمل ولا يتبين إلا بعد الطلاق، وهي مشكلة أخرى.

نعم، هذه السلبية محتملة، ولذا يجب أن تكون هناك: أولاً: حالة ضبط سلوكي عند الطرفين لتحديد مدى محدد للعلاقة، مع ضمان متابعة الأهل. وكما يقال: الأصل في هذه الفترة أن اعرف الآخر ولا تعرف جسده.

ثانياً: توعية الطرفين إلى هذه السلبيات.. للفتاة لكي لا

تسمح للطرف الآخر بتجاوز ما هو متفق عليه، وللشاب كي يميز بين ما يُود فعله، وبين ما يجب فعله.

ثالثاً: يحقّ للفتاة - ضمن عقد النكاح - أن تشترط عدم الدخول - بل مطلق الاستمتاع على رأي فقهي آخر - ويجب على الزوج الوفاء به، ففي كتاب (فقه الشريعة): (يجب على الزوجة أن تفي لزوجها بحقه في الاستمتاع بها بالنحو المذكور في المسألة السابقة، حتى لو كانت غير راغبة في الاستمتاع حين رغبته فيه، ما عدا الموارد التالية:

الأول: ما لو اشترطت عليه عدم تمكينه من نفسها في جميع الاستمتاع أو في بعضها، إما صريحاً أو ضمناً، ومن ذلك ترك تمكينه خلال فترة ما بعد العقد وقبل زفافها، وهي المعبر عنها في بعض البلاد بفترة الخطوبة، فإنه يكفي في عدم تمكين الزوجة من نفسها فيها ما لو استقر تباني العرف على عدم التمكين، بحيث صار ذلك حاضراً في ذهن المتعاقدين حين التعاقد، ويصير ذلك شرطاً ضمناً ملزماً له في سقوط حقه عنها والإقتصار في الإستمتاع بها على الحدود الموافقة للشرط...^(١).

(١) فضل الله: فقه الشريعة، ج ٣، مسألة ٧٥٠.

وفي كتاب (المسائل المنتخبة): (يجوز للمرأة في النكاح المنقطع وكذا الدائم أن تشتراط على زوجها عدم الدخول بها، فلو اشترطت عليه ذلك لم يجز له مقاربتها ويجوز له ما سوى ذلك من الاستمتاع، نعم لو رضيت الزوجة بعد ذلك بمقاربتها جازت له)^(١).

ومن خلال الإجراءات السابقة يمكن الحدّ من تلك السلبية لتكون إطالة الفترة هي الخيار الأنسب في الزيجات التي تتم بين طرفين لا يعرف أحدهما عن الآخر إلا القليل.

(١) السيستاني: المسائل المنتخبة، المسألة ١٠١٢.



التواصل بين الزوجين

القدرة البشرية على التواصل من خلال الكلمات أو الجُمْل المعبرة واحدة من أهم ركائز الحياة الاجتماعية الناجحة والقابلة للتطوير والتشكّل في المظهر الثقافي أو العلمي أو السياسي أو الاقتصادي أو غير ذلك، بحيث يحوّل كل طرف ما يجول في ذهنه وما ينوي بيانه إلى كلمات أو جُمْل تدلّ على المطلوب بالدقة والتحديد، ومن خلال يدرك حاجة الآخر أو مشاعره أو طلبه أو رأيه أو غير ذلك. ونجاح العلاقة الزوجية في جانب مهم منه يعتمد على مثل هذا التواصل وفق أسسه السليمة.

هذه القدرة البشرية تمظهرت في قوله «تعالى»: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ، وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(١).

وقد اختلفت الآراء في تأويل هذه الآيات الشريفة، لا سيما في ما له علاقة بالأسماء التي علّمها الله آدم، وبعض هذه الآراء يعتمد على روايات وأقاويل وردت في كتب المسلمين، وأقصد بالروايات ما هو مروي عن رسول الله أو عن إمام، أما الأقاويل فما هو منقول مثلاً عن مجاهد ومقاتل وحتى ابن عباس، فهذه الأقاويل لا تذكر أنها تروي عن النبي أو عن إمام، فهي ليست روايات بحسب المصطلح المعروف، وبالتالي فهي آراء أصحابها.

القول الأول: هذه الأسماء أسماء مخلوقات الله. كما في تفسير الطبري عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: (عَلَّمَ الله آدم الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان، ودابة، وأرض، وسهل، وبحر، وجبل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها) (١).

القول الثاني: أنها أسماء الملائكة، كما في تفسير الطبري أيضاً عن الربيع بن أنس البكري: (قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ قال: أسماء الملائكة) (٢).

القول الثالث: أنها أسماء ذرية آدم كلهم. ففي تفسير الطبري: (قال ابن زيد) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (في قوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. قال: أسماء ذريته أجمعين) (٣).

القول الرابع: أسماء حجج الله، ففي كتاب (بحار الأنوار) للمجلسي، عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»: (إن الله «عز وجل» عَلَّمَ آدم أسماء حُجَّجِهِ كُلِّهَا، ثم عرضهم

(١) ابن كثير: تفسير القرآن، ج ١، ص ٧٦.

(٢) الطبري: جامع البيان، ج ١، ص ٢٥٣.

(٣) الطبري: جامع البيان، ج ١، ص ٢٥٣.

وهم أرواح على الملائكة. فقال: أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بِأَنكُمْ أَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ فِي الْأَرْضِ لِتَسْبِيحِكُمْ وَتَقْدِيسِكُمْ مِنْ آدَمَ. فقالوا: سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قال الله «تبارك وتعالى»: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ وقفوا على عظيم منزلتهم عند الله «عز ذكره»، فعلموا أنهم أحقُّ بأن يكونوا خلفاء الله في أرضه وحججه على بريته، ثم غيَّبهم عن أبصارهم واستعبدهم بولايتهم ومحبتهم، وقال لهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(١).

القول الخامس: تؤكد هذه الآيات الشريفة على تميّز الإنسان بميزة تجعل الاختيار الإلهي له ليكون خليفته على الأرض، والأمر الإلهي بالسجود له أمراً قائماً على أساس معلوم، وليس مجرد أمر تعبدي. هذا التميّز يتلخّص في الإبداع الإلهي بخلق العقل البشري القادر على الإبداع والخلقية، وهو ما يميز العقل البشري عن عقل الملائكة، إذ أن عقل الملائكة غير قادر على ذلك، وهو ما يميّزه أيضاً

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢٦، ص ٢٨٣.

عن عقل الحيوان، فالحيوان يفكر -ولو بشكل محدود- ولكن هل يمكن لتفكيره أن يقوده لصنع حضارة؟

الدماغ البشري كتلة من الدهون والبروتينات تزن ١,٤ كجم، ولكنه يحتوي على حدود ٨٥ مليار خلية عصبية تتصل فيما بينها بـ ١٠٠ تريليون ارتباط! ويبلغ الطول الكلي للمسارات العصبية في الفرد البالغ: نحو ٥ ملايين وثمانمائة ألف كم، أي أنها تستطيع أن تلف محيط الكرة الأرضية نحو ١٤٥ مرة! هذا المخلوق شديد التعقيد في خلقه وفي أدائه اعتبره القرآن أنه الحجة بين الناس والله، وهو الذي يُعرف به الله وحقائق الإيمان، وتُعرف به الحياة.

في أمالي الصدوق عن الإمام محمد الباقر «عليه السلام» أنه قال: (لما خلق الله العقل استنطقه، ثم قال له أقبل، فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، ثم قال له: وعزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً هو أحب إلي منك، ولا أكملك إلا فيمن أحب. أما إني إياك أمر، وإياك أنهى، وإياك أثيب)^(١). وبحسب هذا القول، فإن المراد من تعليم آدم الأسماء

كلها، أَنَّ اللَّهَ «عز وجل» وضع في الإنسان عقلاً خلاقاً، قاد آدم إلى التمكن من أن يبتكر أسماء للأشياء المختلفة، العاقلة وغير العاقلة، وأن يعبر بالكلمات عما يجول في ذهنه، بصياغة الجمل، وتركيبها مع بعضها البعض.. وهذه القدرة هي واحدة من نتائج ذلك العقل الجبار الذي تميّز به، وخير مصداق لذلك. ولذا، ليس عبثاً أن يظهر هذا الامتنان الإلهي في قوله «عز وجل»: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(١).

وليس عبثاً أن يكرر الله «عز وجل» ذكر القلم ويقسم به وبالقدرة على الكتابة التي هي ترجمة مرئية للكلمات والمفاهيم والمشاعر: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾^(٢).

كما نجد أن الفلاسفة والمناطقة للتعريف عن جنس الإنسان وتمييزه عن سائر الموجودات قالوا: (الإنسان حيوان ناطق) أي عاقل، وعقله بمستوى يجعله ناطقاً يعبر بالمثل وبالشعر، بالحقيقة وبالمجاز، بالتصريح والتلميح،

(١) سورة العلق: ١-٥.

(٢) سورة القلم: ١.

بالإطالة والإيجاز عن آماله ورغباته ومشاعره وأفكاره ومشاريعه، وعن الحقيقة والخيال، وغير ذلك. وليس في الوجود المادي الذي نعرفه ونتعامل معه ما يمتلك مثل هذه القدرة الخلاقة.

• الأهمية الاجتماعية :

وأياً كان التأويل الحقيقي للآيات الشريفة، يبقى من المسلمات أنّ الله «عز وجل» قد كرّم الإنسان بالقدرة على التواصل الكلامي مع أبناء جنسه بأعلى مستوى من القدرة على التعبير، وهذه النعمة الإلهية العظيمة واحدة من أهم وسائل تحقيق وترسيخ العلاقات الاجتماعية بين الناس، ومن بينها المودة بين الزوجين.

هناك جعل تكويني سماوي للمودة صنعه الخالق «عز وجل» عند ارتباط الذكر والأنثى من خلال عُلقة الزوجية، قال «عز وجل»: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١)، وهناك جهد يبذله الزوجان لتعزيز

هذه المودة وترسيخها وتنميتها لتتأصل في الوجود الأسري، وترسم لوحة رائعة للمشاعر الإنسانية الراقية..

وللكلمة أثر الفرشاة في يد فنان مبدع... وفي النبوي:
(قول الرجل للمرأة: إني أحبك، لا يذهب من قلبها أبداً)^(١).

ولا يقتصر الأثر الإيجابي لكلمة الحب وتعبيراتها المختلفة في إطار الحياة الزوجية، بل هي حالة طبيعية في الوجدان البشري والعلاقات البشرية بشكل عام، وهذا ما نلاحظه في الخبر التالي: (مرَّ رجل في المسجد والإمامان محمد الباقر وابنه جعفر الصادق «عليهما السلام» جالسان، فقال له بعض جلسائه: والله إني لأحب هذا الرجل. قال له أبو جعفر: ألا فأعلمه، فإنه أبقي للمودة وخير في الألفة)^(٢).

وفي المقابل، فإنَّ ضعف أو فقدان هذا العامل المهم في تكوين مشاعر المودة والحب، سيؤدِّي إلى نتيجة كارثية!

• أرقام ذات دلالة :

في دراسة لوزارة العدل -إدارة الاستشارات الأسرية-

(١) الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٥٦٩.

(٢) البروجردي: جامع أحاديث الشيعة، ج ١٦، ص ٢٣٠.

بعنوان أسباب الطلاق بين الكويتيين حديثي عهد بالزواج، جاء من بين الأسباب المطروحة: (عدم ابداء الطرف الآخر كلمات الحب والاعجاب)، ووفق هذه الدراسة، فقد بلغت النسبة المئوية للموافقة لدى الذكور بأنه من أسباب الطلاق (٢٤,٤ %) بينما ارتفعت لدى الإناث لتصل إلى (٤٣ %).

وهذا يعني أن رغبة الزوجة في سماع مثل هذه الكلمات أقوى بالضعف تقريباً من رغبة الزوج في ذلك، وهو ما يجب أن يلتفت إليه الأزواج، إذ قد يغيب عنهم ذلك، لأنهم لا يشعرون في داخلهم بالحاجة الملحة إليه، بينما تشعر الزوجة بذلك بشكل قوي.

وتشير تجارب العاملات في مجال الإرشاد الأسري -كما تقول الدراسة- إلى أن ارتفاع النسبة لدى الإناث يتفق مع الواقع الكويتي، فالكثير من الزوجات يشكين من عدم إبداء الزوج لكلمات الإطراء والاعجاب، مما يجعل الحياة الزوجية بالنسبة إليهن كثيية ويشعرن بعدم حب الزوج لهن. بينما قد لا تكون المسألة بهذه الصورة، والزوج يكن لها كل المودة والحب، ولكن غاب عنه ضرورة إخراج ما في القلب بصورة كلمات معبرة.

• فارق فسيولوجي:

تقول (آن موير) في كتابها (جنس الدماغ): (الرجال مكيفون على عدم التعبير عن مشاعرهم، ذلك لأن قدرتهم على الإحساس بالمشاعر مفصولة في أدمغتهم بتكوينها المادي عن قدرتهم على الإفصاح اللفظي بدرجات أكبر من النساء). وهذا يعني أن الرجل بحاجة إلى أن يجاهد ويصارع هذا الفارق الخُلقي، كي ينجح في دوام التعبير عن الحب وعن مشاعره لزوجته، ولربما يحتاج إلى أن ينبّه نفسه ويدربها ويراقبها كي تتحول المسألة عنده إلى مسألة تلقائية. وفي المقابل على المرأة أن تتفهم وجود هذا الفارق بينها وبين الرجل، كي يزول اللبس الحاصل عند بعضهن بتصور أن الزوج لم يعد يحبها، ففي أحيان كثيرة لا تكون المسألة من باب أنه لم يعد يحبها، بل هي من باب أن هذه هي فطرته التي خُلق عليها. ولربما لهذا وجدنا النبي «صلى الله عليه وآله» يحث بصورة غير مباشرة على أن يقول الرجل للمرأة (أحبك).. فلو كانت المسألة تلقائية لانتفى الداعي. وفي الحكمة المأثورة أن: (الرجال صناديق مغلقة،

مفاتيحها الكلام)، وقال سقراط: (تكلم حتى أراك)^(١). قد تكون المودّة موجودة، وهي قويّة، ولكنها في صندوق مغلق، ولذا لا تدرك الزوجة وجودها... تكلم أيها الزوج، فكلامك مفتاح هذا الصندوق الأسود. وكذلك يفترض بالمرأة حينما تشعر بوجود مثل هذا البرود في التعبير عن الحب من قبل الزوج (فيما يُعبّر عنه بالحب المكنون) أن تدفعه للتغلب عليها، فالمشكلة في دماغه لا في قلبه!

ومن المؤسف لجوء بعض الزوجات إلى المشعوذين والدجالين والسحرة لكتابة أو عمل شيء يجلب المحبة بحسب ادعائهم.. وقد يبدو للبعض ألا مانع مما يقدّمه هؤلاء من دجل باعتبار ذكر البسملة وبعض الآيات القرآنية واسم النبي «صلى الله عليه وآله» في ضمن أعمال السحر المقدمة للزوجة، إلا أن الواقع أن هؤلاء يدلّسون ويخدعون طالبات (سحر المحبة) بمثل هذه الأسماء المقدسة والآيات القرآنية بهدف إضفاء الشرعية على أعمالهم أو لمزيد من خداع (عملائهم)! ولن يكون ذلك طريقاً حقيقياً لشرعنة أعمالهم الشيطانية والباطلة.

(١) شلبي: الارتقاء بالذات، ص ٢٠٧.

وعلى كل حال، سواء أكان لهذه الأعمال تأثير حقيقي أم لا، فإن كل المبررات التي تقدمها الزوجة للجوء إليها لا تصمد بأجمعها أمام حقيقة أن هذه ممارسة كفرية، وعن علي «عليه السلام» أنه قال : (من جاء عرافا فسأله وصدّقه بما قال، فقد كفر بما انزل الله على محمد «صلى الله عليه وآله»)(١).

وروي أن امرأة سألت النبي «صلى الله عليه وآله»: (إن لي زوجاً وبه علي غلظة، وإني صنعت شيئاً سحر لأعطفه عليّ. فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: أف لك، كدّرت البحار وكدّرت الطين، ولعنتك الملائكة الأخيار وملائكة السماوات والأرض)(٢).

• الصراع مع الذكاء الاصطناعي:

وإذا كانت المشكلة في كثير من الأزواج واضحة في ضعف التواصل مع زوجاتهم، إلا أن الظاهرة الجديدة التي باتت تعاني منها كثير من الأسر الحديثة هي تشاغل الطرفين عن

(١) البروجردى: جامع أحاديث الشيعة، ج ١٧، ص ٢٤٩.

(٢) البروجردى: جامع أحاديث الشيعة، ج ١٧، ص ٢٤٦.

بعضهما البعض حال وجودهما في مكان واحد، في داخل البيت، ومن دون وجود عمل حقيقي يستدعي ذلك... والسبب هو الهاتف الذكيّ !

كلُّ منهما يُمسك بهاتفه الذكيّ ويستغرق فيه بكل حواسه لساعات وساعات وبصمت مطبق، حتى يغلبهما -أو أحدهما- النعاس لينتهي اللقاء الصامت دون أي نوع من التواصل الكلامي والعاطفي ولو بنظرة ود ومحبة.

هذا الوضع لا يؤدي لشيء سوى إلى جمود عاطفي تدريجي نهايته زعزعة أركان هذه الأسرة، ولربما تفككها، ومن ثم الطلاق أو الانفصال، أو الدخول في متاهات أخرى خطيرة، لا تقتصر انعكاساتها على الزوجين، بل تمتد لتشمل الأبناء أيضاً. وهذا الصمت قد يُظن به ظن السوء، ويثير الشكوك، إذ يُفسَّر بطريقة خاطئة، حين تعتقد الزوجة بأن زوجها منشغل بأخرى، ولربما شك الزوج في زوجته بسبب ذلك، ولا يخفى ما قد يخلفه كل ذلك من تدمير للعلاقة بين الطرفين بشكل قد يصعب ترميمه.

وسواء أ كان الصمت من الزوج أم من الزوجة فإن

مواجهته وتحطيم جداره بالكلام أمر فعّال ومهم، لأن الكلام عنصر من أهم عناصر التفاهم بين أفراد الأسرة.

ولذا، فإن الزوجين إذا كانا حريصين على الأسرة التي كوّنّاها، وعلى استمرارية أجواء المودة والحب بين أفرادها، كان من الضروري أن يسعيا لتقنين استعمال الهاتف الذكي، وأن لا يسمحا (لذكاء) هذا الهاتف أن يتغلّب على (ذكائهما)، وأن لا يُعطيا المجال لهذا الجهاز الأصم أن يتغلّب عليهما وقد خلقهما الله ناطقين عاقلين مفكرين ومبدعين... التقنين يعني أن نصيغ لأنفسنا قواعد وقوانين.. مثلاً، بعض الأسر وضعت قانوناً يتمثل في أن الأسرة إذا جلست على مائدة الطعام، فعلى الجميع أن يُغلق أو يُبعد هاتفه الذكي.

بعض الأسر اختارت أن تكون لها جلسة يومية تمتد لوقت ما بحيث تكون خالية من استعمال التكنولوجيا، ومفعمة بالأحاديث المتبادلة... وهكذا تضع كل أسرة قوانين تنظم عملية استعمال الهاتف الذكي بحيث لا يؤثر على العلاقات الاجتماعية البينية، ولتضمن استمرارية التواصل بين الزوجين، وبينهما وبين الأبناء، وبين الأبناء بعضهم البعض.

المهم أن لا نخرج مهزومين في الصراع البشري مع الآلة التي أخذت بالألباب والقلوب، ووجهت المشاعر والتفكير في اتجاهات أثّرت سلباً على الطبيعة الاجتماعية للإنسان، وأن لا نتحوّل إلى عبيد الآلة من حيث لا نشعر، فإنّ إنسانية الإنسان لا تتحقق بشكل كامل إلا حين يخلع الإنسان نفسه من كل عبودية سوى عبوديته لله «سبحانه وتعالى»، ومن خلال ذلك نحافظ على الكرامة التي ميّز بها الله الإنسان وهو القائل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾^(١).



المعاشرة بالمعروف

يريد الله «سبحانه وتعالى» أن يجعل الحياة الزوجية مبنية على المودة والرحمة والمعاشرة بالمعروف، وقد وردت التوصيات والأوامر في كتاب الله العزيز بالمعاشرة بالمعروف باستعمال كلمة (المعروف) باشتقاقاتها ١٤ مرة، من بينها قوله «تعالى»: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١)، وقوله «تعالى»: ﴿فَآمَسْكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾^(٢).

والمعاشرة بالمعروف تعني أن تتم المعاشرة بينهما

(١) سورة النساء: ١٩.

(٢) سورة البقرة: ٢٣١.

بأسلوب لائق، منسجم مع تعاليم الشرع، وأعراف المجتمع، وذلك من خلال:

(١) أن يؤدي كل منهما للآخر حقوقه، لا ضمن الحد الأدنى من الحقوق، والذي يُذكر عادة في الكتب الفقهية، كأن يعطيها مثلاً ثوباً للشتاء وثوباً للصيف، وبالمقابل هي تطالبه بثمن الرضاع.. هذه ليست معاشرة بالمعروف.. هذا قمة النكد الزوجي.. بل المراد أن يكون ذلك ضمن المستوى المتعارف وضمن الإمكانيات المادية المتاحة.

(٢) أن يكون هناك احترام متبادل، فإذا كان الزوج مثلاً يجرح مشاعر زوجته بالحديث السلبي عن أهلها، أو عن صفاتها الجسدية، أو كان يهينها ويذلّها، أو كانت الزوجة سليطة اللسان تُعيب على زوجها حالته المادية مثلاً، أو مستواه التعليمي، فهذا كله ليس من المعاشرة بالمعروف.

• ما وراء القِوامة :

وأما تحديد القِوامة للرجل في إطار العلاقة الزوجية من خلال قوله «تعالى»: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ

اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾^(١) فلا يعني السماح للزوج بظلم زوجته وقهرها وإيذاؤها والتعدي على حقوقها وشخصيتها وملكيّتها.

كما أنّ قِوامة الزوج على زوجته ليست رفعاً لقيمة الذكر على الأنثى، ولا الزوج على الزوجة، بل هو إجراء تنظيمي، لأنّ بيت الزوجية يمثل مؤسسة إنسانية، فيها المسؤوليات المادية والعاطفية والحياتية، فلا بدّ أن يكون هناك نوع من تنظيم هذه الحياة. وبالتالي فالقِوامة تكليف، لا تشریف.

فمن خلال القِوامة يتمّ تكليف الزوج ببعض الواجبات تجاه النواة الاجتماعية التي تأسست مشاركةً مع زوجته، وأعطيت له في المقابل بعض الصلاحيات كحق الطلاق. علماً بأنّ للزوجة أن تشاركه في ذلك لو اشترطت عليه في العقد أن تكون وكيلاً عنه في الطلاق.

وبالتالي فإنّ القِوامة لا تتنافى مع المعاشرة بالمعروف، لأنها لا تعني أبداً التسلّط والقهر والإيذاء والاستضعاف والإساءة، ولو أصرّ على مخالفة ذلك، فإنّ لها ردعه -لو

أرادت- وبحكم الشرع، فالله «تعالى» لا يرضى بالظلم، فكيف لو كان منشأ الظلم هو سوء الاستغلال للصلاحيات المعطاة من قبله «سبحانه»؟

ولذا قال «تعالى» بعد بيان بعض أحكام العلاقة الزوجية: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(١)، وقال: ﴿وَلَا تُمَسِّكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢)، وقال «عزَّ اسمهُ»: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾^(٣).

ومن صور الردع هنا لجوء الزوجة إلى الحاكم الشرعي لاتخاذ الإجراءات اللازمة، ومن بينها ما يُعرف بعنوان (طلاق الضرر) أو (الطلاق للضرر)، ومن موارده ما لو كان يؤذيها بالضرب مثلاً، وذلك ضمن إجراءات ترتيبية معينة

(١) سورة البقرة: ٢٢٩.

(٢) سورة البقرة: ٢٣١.

(٣) سورة البقرة: ٢٣٥.

سأذكرها في موضع آخر من هذا الكتاب.

• استضعاف الزوجة :

الآية التالية تقدّم صورة من صور المعاشرة بين الزوجين ولكنها تتّصف بأنها معاشرة بغير المعروف، أي بصورة تُخالف الإرادة الإلهية وتوصيات السماء في ترتيب العلاقة بين الرجل والمرأة، وهي مجرد نموذج في هذا الإطار، مع وجود صور أخرى متعدّدة، قال «تعالى»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لَتَنْذِبُوا بَعْضَ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(١).

فهذه الآية تطرح مشكلة اجتماعية عهدتها المجتمعات الجاهلية، وعاشها المجتمع الإسلامي المعاصر للنبي «صلى الله عليه وآله» وتبرز حالة استضعاف الرجل للمرأة -بما في ذلك الزوجة- انطلاقاً من قوته الجسدية أو تفوّقه العنواني كزوج أو أب أو أخ، وذلك بالضغط عليها للاستيلاء

على نصيبها من الإرث، أو لدفعها للتنازل عن مستحقات مهرها من المؤخر أو سواء. والآية تُقرّر أن هذا التصرف يعتبر أكلاً للمال الحرام، وممارسة للظلم.

وعليه، فإنّ التشريع -والقيم الأخلاقية أيضاً- يحدّدان للرجل المؤمن أطر العلاقة الإنسانية الإسلامية التي تربطه بالمرأة كزوجة أو ابنة أو أخت أو غير ذلك، على أن لا يكون ضَعْفُ المرأة أساساً لحرمانها، ومبرراً لاضطهادها.

هذا الرادع الداخلي عنصر أساسي ومقدّم في الرؤية الإسلامية لتحقيق الأمن الاجتماعي، لأنه هو القوة الحقيقية ضمن وسائل الردع المتنوعة كتشريع القوانين والعقوبات وما إلى ذلك.

نعم، تستثني الآية حالةً واحدةً وهي فيما لو ارتكبت الزوجة الزنى، ففي مثل هذه الحالة، يمكن للرجل ممارسة بعض ألوان الضغط لتفتدي ذلك بمالها من المهر كلاً أو بعضاً، كعقوبة لها على هذا الانحراف من جهة، أو كتعويض للرجل عما أنفق عليها فيما سبق، أو كتعويض نفسي واعتباري نتيجة إساءتها إلى مشاعر الكرامة والشرف عنده.

وعلى العموم، فقد رسمت الآية معالم المنهج العام لطبيعة العلاقة بين الطرفين، وهي المعاشرة بالمعروف التي تتمثل في احترام المرأة في مشاعرها وعواطفها وشخصيتها المستقلة كإنسانة محترمة في إرادتها وتفكيرها.

ثم تلتفت الآية إلى مسألة أخرى في نفس الإطار ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ فقد تكون تلك المشاعر السلبية أمراً طارئاً نتيجة موقف أو حالة انفعالية تحجب عن الرؤية كل الإيجابيات الأخرى التي يعرفها الإنسان أو ستكشفها الأيام، والمتمثلة في شخص الطرف الآخر، أو فيما يتعلق بتربية الأبناء الذين هم بحاجة إلى رعاية الأبوين معاً لتكون التربية متكاملة.. فإذا غلب الإنفعال فسيُخيّل له أن الخير شرٌّ والشرُّ خيرٌ، وتغيب الحكمة ويقترب من التصرف الخاطئ.

ولهذا يقول الله للرجل: كن موضوعياً وأنت تحكم على الأمور والأشخاص، وليكن العدل منهجك في ذلك كله.

ومن المفيد أن ننتبه إلى أنّ المسلمين عندما التزموا بهذه التشريعات، وترّبوا عليها، استطاعت أن تتغلب على كثير

من مظاهر الظلم الجاهلي الذي عاشته المرأة في حقوقها المادية والمعنوية، وبدأ الإنسان المسلم ينظر إليها كإنسان كامل، له حقوق وعليه واجبات لاسيما بلحاظ قوله «تعالى»: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾^(١)، وقد امتدح الله المؤمنين الصالحين معتبراً أن من صفاتهم أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا، أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾^(٢).

• الزوجة الحكيمة:

في كتاب (الأمالى) للشيخ الطوسي حول هجرة النبي «صلى الله عليه وآله» إلى المدينة حديث يتناول تفاصيل ما جرى بعد أن هجم المشركون المتربصون بالدار على علي «عليه السلام» وهم يظنون أنه النبي، قال: (وأمهّل علي «صلوات الله عليه» حتى إذا أعتّم من الليلة القابلة انطلق هو وهند بن أبي هالة حتى دخلا على رسول الله «صلى الله عليه

(١) سورة آل عمران: ١٩٥.

(٢) سورة الفرقان: ٧٤-٧٦.

وآله» في الغار، فأمر رسول الله «صلى الله عليه وآله» هنداً أن يبتاع له ولصاحبه بغيرين، فقال أبو بكر: قد كنت أعددتُ لي ولك يا نبي الله راحلتين نرتحلهما إلى يثرب. فقال: إني لا آخذهما ولا أحدهما إلا بالثمن. قال: فهي لك بذلك، فأمر «صلى الله عليه وآله» علياً «عليه السلام» فأقبضه الثمن، ثم أوصاه بحفظ ذمته وأداء أمانته.. وقال النبي «صلى الله عليه وآله»: إنهم لن يصلوا من الآن إليك يا علي بأمر تكرهه حتى تقدّم عليّ، فأدّ أمانتي على أعين الناس ظاهراً، ثم إني مستخلفك على فاطمة ابنتي ومستخلفُ ربي عليكما ومستحفظُ فيكما، وأمره أن يبتاع رواحلَ له وللفواطم ومَن أزمع للهجرة معه من بني هاشم. قال أبو عبيدة: فقلت لعبيد الله - يعني ابن أبي رافع - أو كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» يجد ما ينفقه هكذا؟ فقال: إني سألت أبي عما سألتني، وكان يحدث بهذا الحديث، فقال: فأين يذهب بك عن مال خديجة «عليها السلام»؟ وقال: إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: ما نفعتني مالٌ قط مثل ما نفعتني مالُ خديجة «عليها السلام»، وكان رسول الله «صلى الله عليه وآله» يفك من ماله الغارم والعاني الأسير (ويحمل الكل) الضعيف

(ويعطي في النائية، ويرفد فقراء أصحابه إذ كان بمكة، ويحمل من أراد منهم الهجرة، وكانت قريش إذا رحلت عيرُها في الرحلتين -يعني رحلة الشتاء والصيف- كانت طائفة من العير لخديجة، وكانت أكثر قريش مالاً، وكان «صلى الله عليه وآله» ينفق منه ما شاء في حياتها ثم ورثها هو وولدها بعد مماتها)^(١).

هذا المشهد مع ما فيه من تكريم لواحدة من سيدات نساء أهل الجنة، إلا أنه يستوقفنا عند قضية مشاركة المرأة زوجها في تحمّل أعباء الحياة كنوع من أنواع اصطباغ الحياة الزوجية بعنوان المعروف.

من الناحية الشرعية لا يجب على الزوجة الإنفاق على الأسرة بل ولا على نفسها من مالها وإن كانت مستغنية من خلال راتبها أو من إرث أو غيرهما. لاحظ المسألة: (يحرم على الزوج أن يأخذ مال زوجته الخاص بها الذي تحصل عليه من عملها وما يأتيها من هدايا وغير ذلك إلا برضاها وطيب نفسها وإلا كان غاصباً ظالماً، ولا يجوز له إضطهادها نتيجة عدم قبولها لإعطاء مالها له، ويجب عليه أن ينفق

(١) الطوسي: الأمالي، ص ٤٦٨.

عليها من ماله ولو كانت مستغنية بما لها من مال^(١).

هذا من حيث المبدأ الشرعي، ولكن متى ما كانت الحياة الزوجية مبتنية على التفاهم والحب والتراحم بين الطرفين فكل هذه العناوين تزول، وسيتفاهمان على كيفية بناء حياتهما في الجوانب المختلفة ومن بينها الجانب المادي، وستقدم الزوجة كل التضحيات من أجل بناء الأسرة، ولن يكون لهذه المسألة موقعاً في خصام بينهما.

(١) arabic.bayynat.org/ListingFAQ2.aspx?cid=255&Language=1



التضحية خلق أصيل

يمكن تعريف التضحية على أنها تخلُّ إرادي واستغناءً اختياري وتنازلٌ بعزيمة وعقلانية عن ميزة أو منفعة أو لذة أو مُلك شخصي لغاية سامية نبيلة.

ولو رجعنا إلى المعاجم اللغوية القديمة، فلن نجد للتضحية معنىً كالذي نستعمله فيه اليوم، المعنى الذي يختزن مفهوم الإيثار، والبذل للآخرين دون مقابل، وتقديم الآخرين على النفس.

وهكذا لو إذا رجعنا إلى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة فلن نجد استعمالاً لهذه الكلمة بهذا المعنى، بل تستعمل في ذبح أو نحر الأنعام، فالمعنى الأصلي لكلمة

(ضُحَى) كما في لسان العرب: (ضُحَى: وَضْحَوَةٌ؛ وقت ارتفاع النهار)^(١).. قال «تعالى»: ﴿وَالضُّحَى، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾^(٢). وحيث تشتد الحرارة بارتفاع النهار استعملت كلمة (يضحى) للدلالة على أن الشخص يتأذى من حرارة الشمس. قال الله «تعالى»: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾^(٣)، أي: لا يؤذيك حر الشمس. وإذا ذبحت الأنعام أو نُحِرَتْ وقت الضحى كما في مناسك الحج من يوم العاشر من ذي الحجة، سُمِّيَتْ: (أضحية). ولذا الاستعمال القديم لكلمة (تضحية) يعني ذبح أو نحر الأنعام.

وفي زمن متأخر جداً توسّع العرب في استعمال كلمة (تضحية) لتشمل المعنى الذي نستعمله بكثرة للدلالة على الإيثار، والبذل للآخرين دون مقابل، كقولنا: (الأم تضحى من أجل أبنائها).

أما قبل ذلك فنجد كلمات الإيثار، والفداء، والتقديم، بدائل عن كلمة (تضحية)، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا

(١) ابن منظور: لسان العرب، ج ١٤، ص ٤٧٥.

(٢) سورة الضحى: ١-٢.

(٣) سورة طه: ١١٣.

المفهوم في قوله «سبحانه وتعالى»: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ
وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ
فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ
وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

أو نجد استعمالاً لعبارات لها هذه الدلالة، وذلك من
قبيل ما قاله المتنبى بحق سيف الدولة^(٢) حين وصف روح
التضحية الحربية فيه كالتالي:

الجيشُ جيشك غير أنَّك جيشُه

في قلبه ويمنه وشماله

كلُّ يُريدُ رجاله لحياته

يا مَنْ يُريدُ حياته لرجالِه

(١) سورة الحشر: ٩.

(٢) سيف الدولة الحمداني من الأمراء الأبطال الذين دافعوا عن حدود
الدولة الإسلامية ضد غزوات الروم في القرن الخامس الهجري، وكان
حاكم الدولة الحمدانية، ولفروسيته واهتمامه بذلك جَمَعَ مما كان يعلق بنبابه
من غبار الحروب التي خاضها بنفسه مقدار لبننة وأوصى أن تُوضع تحت
رأسه في قبره.

• دوافع التضحية :

١. الحرص على التحلي بمكارم الأخلاق.. (دافع روحي)
 ٢. الحب الفطري كحب الوالدين للأبناء، أو الغرائزي كالحب تجاه الجنس الآخر. (دافع عاطفي)
 ٣. معرفة قيمة التضحية ونتائجها العامة والشخصية.. (دافع عقلي)
 ٤. الرغبة في الحصول على العطاء الأخرى.. (دافع إيماني)
 ٥. قوة الشعور بالانتماء، كالتضحية التي يقدمها الفدائيون حين يُقدِّمون على عمل استشهادي ضد الجيش المعتدي والمحتل.. (دافع اجتماعي)
- والإخلاص عند التضحية مهم، سواء كان الدافع حباً أو رغبة في عطاء أخروي أو تمسكاً بمكارم الأخلاق... أيّاً كان الدافع، لا تتوقع المقابل، وإلا:
- ١- سَتُعِبَ نَفْسُكَ - خاصة إن كنت ممن يبالغون في التضحية- لأنك قد لا تجد تقديراً أو تضحية موازية أو بنفس الحجم.

٢. أو ستكون لك ردّة فعل تمتنع من خلالها عن التضحية في موارد أخرى، تحت شعار: خيراً تعمل شراً تلقى.
٣. أو تفسد علاقتك مع الآخر بالنزاع أو المنّ.
٤. أو ستدفع الناس للابتعاد عنك خوفاً مما سبق، لأنهم يدركون سلفاً أنك ستطالبهم بالمثل، وهم غير قادرين على ذلك.

• قيمة التضحية:

وهي تبرز من خلال كونها ضد (الأنانية) المبعوضة.. فالإنسان لا يعيش بمفرده في هذه الحياة، لذا فإن هناك تنافساً بين الأفراد فيما يحتاجون إليه أو يرغبون فيه.. على الطعام.. على الطريق الذي يسلكونه.. على حق معين (طابور انتظار.. الحصول على موقع قيادي.. إلخ).

وهنا يكون الإنسان بين خيارين، أنا.. أم الآخر؟ الأنا قوية، المصلحة الشخصية قوية.. ولذا من يعارضها ويُقدّم الآخر على نفسه، فهذا يعني أنه قاوم نفسه وتغلّب عليها.. لذا تكون له قيمة عليا. وكلما كان تقديم الآخر في أمر أكثر أهمية أو في ظروف أشد، كلما ازدادت قيمة التضحية.

عن الإمام الحسن «عليه السلام» أنه قال: (رأيت أُمِّي فاطمة «عليها السلام» قامت في محرابها ليلة جمعتها فلم تنزل راکعة ساجدة حتّى اتّضح عمود الصّبح وسمعتها تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدّعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشيء فقلت لها: يا أمّاه لِمَ لا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك؟ فقالت: يا بنيّ الجارثم الدّار)^(١).

• مجالات التضحية:

للتضحية مجال في كل تفاصيل حياتنا، ولكن ما يهمّنا هنا هو الحديث عن التضحية في إطار العلاقة الزوجية، حيث تعتبر التضحية من قبل الزوجين من أهم عوامل نجاح العلاقة بينهما: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢)... مودة ورحمة، إذاً لا بد من تضحية وإيثار، لأن من لوازم المودة والرحمة تحقق التضحية، على أن لا نخلط بين التضحية وأداء أو تحمّل المسؤولية.. فربُّ الأسرة مسؤول عن تأمين رزق أبنائه.. هذا تحمّل للمسؤولية

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٨٢.

(٢) سورة الروم: ٢١.

وليس تضحية.. وهكذا ربة الأسرة هي مسئولة مثلاً عن صحة أبنائها.. فعلاجها لأبنائها أداء لوظيفة وليس تضحية.

وهكذا الزوج مسئول عن النفقة على زوجته.. هذا أداء واجب وليس تضحية.. والخلط بينهما قد يؤدي أحياناً إلى وقوع نزاع. ولذا نسمع منه عبارات من قبيل: (أنا أضحي).. ونسمع منها عبارات من قبيل: (لا غصباً عليك).

الزوج الذي يضحي براحته واحتياجاته الشخصية من أجل إسعاد زوجته وأبنائه، لأنهم أولى عنده من نفسه، يكبر في عيونهم ويُقدِّرون له ذلك، ويدفعهم إلى مقابلة هذه التضحيات بالحُسنَى، فالزوجة تندفع لاحترام وتقدير زوجها وتقديم التضحية المقابلة.. والأبناء يدفعون نحو البر والإحسان إلى أبيهم.. إلا اللهم إذا كنا نتحدث عن زوجة خبيثة النفس عديمة الشعور.. فهذا أمر آخر.

وهكذا الزوجة التي تُقدِّم التضحيات وتتخذ قرارات قد تكون على حساب طموحاتها الشخصية وتجد أن سعادتها في إسعاد أسرتها، وهي أولويتها، فإنها تحتل مكانة عظيمة في قلوب أفراد أسرتها.

هذه النتيجة قد لا تظهر في نفس الوقت، ولكن فلتثق أنها تحضر عظمتها في قلوبهم بأجمل صورة!

ولكن -وللأسف- نجد اليوم أن بعض البرامج ودورات تنمية الذات، تركز على (الأنا) بقوة، إلى درجة باتت التضحية -بسبب ذلك- عبارة عن (سذاجة وخسارة وغباء) في مفهوم الزوج والزوجة.

الأنا المتضخمة يمكنها أن تدفع قوياً نحو تفكيك الأسر بالطلاق والنزاعات البينية المستمرة، فالزوج لا يفكر إلا بإشباع رغباته، ويتنقل كل يوم من امرأة إلى أخرى تحت عنوان الزواج المؤقت وما شابه، وأسرته آخر اهتماماته.

والزوجة لا تريد من زوجها إلا ما يحقق لها أحلامها الوردية في السفر، وعمليات التجميل غير المبررة، والإنفاق ببذخ، وأمثال ذلك، والنتيجة مدمرة من دون شك ولا ريب.



الجمود العاطفي

لِبَيْتِ الزَّوْجِيَّةِ قَدَاسَةً كَبْرَى عِنْدَ اللَّهِ «تعالى»، حَتَّى
عُبِّرَ عَنِ الطَّلَاقِ - فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ - بِأَنَّهُ أَمْرٌ
يَهْتَزُّ لَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ. وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يَبَيِّنُ لَنَا أَنَّ الْعِلَاقَةَ
الزَّوْجِيَّةَ تَتَضَمَّنُ مِيثَاقًا غَلِيظًا، لَيْسَ بِالْهَيْنِ كَسْرُهُ وَنَقْضُهُ،
قَالَ «تعالى»: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(١).

وَلِلْحِفَافِ عَلَى هَذَا الْمِيثَاقِ الْغَلِيظِ هُنَاكَ أَخْلَاقِيَّاتٌ
وَأَدَابٌ وَمَشَاعِرٌ وَأَحَاسِيْسٌ تَحِيطُ بِهَذِهِ الْعِلَاقَةِ، فَضْلًا عَنِ
الْحَقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ، وَلَا بَدَّ مِنَ الْحِرْصِ عَلَى ذَلِكَ الْجَانِبِ،
كَمَا الْحِرْصُ عَلَى جَانِبِ الْحَقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ. أَمَّا مَنْ يَرِيدُ أَنْ

(١) سورة النساء: ٢١.

يُدير بيتَ الزوجية على وَفَعِ نظامِ الحقوق والواجبات فقط،
فإنَّما يحوِّله إلى وجودِ ماديٍّ سَهْلِ التفكيك، ويحكم عليه
تدريجياً بالدمار... الروح والعاطفة والمودة وانعكاساتها
هي التي تفيض الحياة والحيوية على بيت الزوجية: ﴿وَمِنْ
آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَفِرُونَ﴾^(١).

ومن هنا نجد -في سيرة مولانا فاطمة الزهراء «عليها
السلام»- أنها تَقْنَعُ بالحياة البسيطة، وتَصْبِرُ على التعب، ولا
تَدْخُلُ في مساوماتِ الحقوق والواجبات مع زوجها كي تصل
إلى ما تريد، كما نشهد في بعض الخلافات الزوجية اليوم.
وفي المقابل، نجد علياً «عليه السلام» مع كل انشغالاته وتعبه
خارج المنزل، يُبادر لإعانة الزهراء «عليها السلام» في
أعمال المنزل، بل ويؤثِّر أن يتعب هو لتستريح هي من العناء.

وعديدةٌ هي الأخبار التي تتقل لنا صورة التناغم
والتفاهم والتواد والتراحم التي كانت تغمر بيت علي وفاطمة
«عليه السلام»، ليس في الظروف الطبيعية، بل حتى في
أصعب الظروف، ففي أكثر الأحيان يخرج الإنسان في

الظروف العصيبة عن الحالة النفسية الطبيعية كما قال «سبحانه وتعالى»: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾^(١)، إلا أن حال الزهراء وعلي لم يكن كذلك.

من بين هذه الصور ما رواه أمير المؤمنين «عليه السلام» لرجل من بني سعد، وكأنه حين يسترجع تلك اللحظات السعيدة والجميلة التي كان يعيشها مع الزهراء، إنما يفتقدها ويحنّ ويشتاق إليها.

قال: (ألا أحدثك عني وعن فاطمة الزهراء؟ إنها كانت عندي، فاستقّت بالقربة حتى أثر في صدرها، وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها) أي ظهر فيها انتفاخات تحتوي على الماء من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة (وكسحت البيت حتى اغبرت ثيابها، وأوقدت تحت القدر حتى دكنت ثيابها، فأصابها من ذلك ضرر شديد، فقلت لها: لو أتيت أباك فسألته خادماً يكفيك حرّ) شدة (ما أنت فيه من هذا العمل. فأتت النبي «صلى الله عليه وآله» فوجدت عنده حداثاً) جماعة يتحدثون (فاستحيّت فانصرفت، فعلم «صلى الله عليه وآله» أنها قد جاءت لحاجة. قال «عليه السلام»: فغدا

علينا رسول الله «صلى الله عليه وآله» ونحن في لفاعنا، فقال «صلى الله عليه وآله»: السلام عليكم، فقلت: وعليك السلام يا رسول الله، أُدخل. فلم يَعدُ أن يجلس عندنا، فقال «صلى الله عليه وآله»: يا فاطمة، ما كانت حاجتك أمس عند محمد؟ قال «عليه السلام»: فخشيتُ إن لم تُجبه أن يقوم، فأخرجت رأسي فقلت: أنا والله أخبرك يا رسول الله).

ويستمر الإمام «عليه السلام» في سرد ما جرى، حيث أخبر النبي بسبب وفود الزهراء عليه، فعرض النبي عليهما بديلاً عن الخادم، وهي تسبيحة الزهراء الخالدة.

ويتّضح لنا من الرواية التالية السبب الذي جعل النبي يعرض هذا البديل حيث قال: (يا فاطمة، والذي بعثني بالحقّ، إنّ في المسجد أربعمئة رجل ما لهم طعام وثياب، ولولا خشيتي لأعطيتك ما سألت) ^(١). ولا يخفي حال أهل الصُفّة من المهاجرين المعدّمين الذين آواهم النبي هناك.

وفي رواية أن أمير المؤمنين قال بعد ذلك: (مَضَيْتَ تريدين من رسول الله «صلى الله عليه وآله» الدنيا) أي ما

يعينك في أمر هذه الحياة (فأعطانا الله ثواب الآخرة) ^(١).

مما سبق يتبيّن أن الظرف في المجتمع الإسلامي في تلك اللحظة لم يكن يسمح بذلك، وأنّ ردّة فعل النبي «صلى الله عليه وآله» كانت من وحي المسؤولية تجاه المجتمع كحاكم، وإلا فإننا نجد لاحقاً في بيت الزهراء مَنْ يقوم بهذا الدور المساعد، ولم يكن ذلك محرّماً على أهل بيت النبي.

وهكذا نالت الزهراء الأمرين بصبرها ورضاها، نالت — في الدنيا — ما كان يعينها، والخلود في تسبيحتها المباركة التي تلهج بها أسنة الملايين ليل نهار؛ كما نالت — في الآخرة — المقام الرفيع.

ونجد في الرواية التالية عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» صورة أخرى من التفاهم والتعاون الذي كان يسود بين هذين الزوجين العظيمين حيث قال: (كان أمير المؤمنين «عليه السلام» يَحْتَطِبُ ويستقي ويَكْنَسُ، وكانت فاطمة «عليه السلام» تَطْحَنُ وتَعْجِنُ وتَخْبِزُ) ^(٢).

(١) ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب، ج ٣، ص ١٢٠.

(٢) الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٨٦.

وحتى النبي «صلى الله عليه وآله» ما كان يستنكف أن يُعين هذين الزوجين، فقد دخل ذات مرة على عليٍّ فوجده وفاطمة يطحنان في الجاروش، أي رchy اليد، فقال النبي «صلى الله عليه وآله»: (أَيُّكُمَا أَعْيَى؟) من منكما يشعر بالتعب والإجهاد؟ (فقال عليٌّ «عليه السلام»: فاطمة يا رسول الله. فقال «صلى الله عليه وآله»: قومي يا بنية. فقامت وجلس النبي «صلى الله عليه وآله» موضعها مع علي «عليه السلام» فواساه في طحن الحب^(١).

وحقٌّ بالزوجة إن كانت بهذه الصورة من الصبر والتفاهم والقناعة أن يقول فيها زوجها: (ولقد كنتُ أنظرُ إليها فتتجلي عني الغمومُ والأحزانُ بنظرتي إليها)^(٢).

هل نظر علي «عليه السلام» - وهو يساعد في الأعمال المنزلية - إلى منظومة الحقوق والواجبات فوجد نفسه ملزماً بذلك؟ أم هل دخل في عملية مساومة معتبراً أنه بقدر ما تُعطيني أُعطيك؟ من البديهي أن المسألة لم تكن كذلك.. بل كان الأمر متعلقاً بأحاسيسه وأخلاقه وأدبه.

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٥١.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ١٣٤.

• حياة ميكانيكية :

أمام هذه الصورة المشرقة لبیت علي والزهراء «عليهما السلام» كنموذج راق لبیت الزوجية تُطالعنا الإحصاءات الرسمية الصادرة عن هيئة المعلومات المدنية في الكويت أن سنة ٢٠١٧ شهدت ٥٦٤١ حالة طلاق، وهو ما يعادل ٢٢ حالة يومياً!

ومن أهم عوامل تدمير بیت الزوجية في الحالات الماضية الجمود العاطفي الذي يخيم على العلاقة بين الزوجين.. حين يفشلان في الحفاظ على العاطفة الكبيرة التي كانت تجمعهما بقوة في بداية العلاقة، ولتتحول الحياة الزوجية إلى حركة ميكانيكية خالية من الروح والمشاعر.

هذا الجمود العاطفي يسهّل من عملية الانفصال أولاً، ثم الطلاق ثانياً، وذلك عند وقوع أبسط اختلاف بينهما أو عند بروز أبسط مشكلة.. وهذا ما يستدعي من الزوجين على طول الخط أن يمتلكا ترمومتراً حساساً يُطلق تنبيهاته حينما تبلغ المشاعر الحميمة بينهما درجات متدنية وخطرة.

وعلى إثر هذه التنبيهات يتحرّك كل طرف بطريقته

لِيُضْفِي شيئاً من الدفء على العلاقة التي برّدت، وباتت معرضة للجمود نتيجة الانشغالات، وضغوطات العمل، وروتينية الحياة الزوجية.

• جهود غير كافية :

الملفت للنظر أن ٥٠٪ من المواطنين والمواطنات الذين وقع بينهم الطلاق قالوا: كنا نتمنى لو كان هناك من أصلح بيننا قبل أن يتم الطلاق، معبرين عن ندمهم بسبب القرار المتسرع! من المعلوم أن وزارة العدل تقوم بتقديم الاستشارات والدورات النفسية والاجتماعية للمقبلين على الزواج، والحديثي العهد به، وكذلك للحالات التي تعاني من مشاكل تهدد استقرار الأسرة، كما تقدّم الاستشارات بقانون الأحوال الشخصية، إلا أنّ المعطيات على أرض الواقع تبين أنّها غير كافية.

في استبانة شملت ١٠٠ مواطن ومواطنة اتّضح أن ٨٩٪ منهم اعتبروا أنّ الجهود الحكومية لتقليص معدّلات الطلاق غير كافية. إذن الأمر يحتاج إلى آليات جديدة، وقد شهدنا قبل عقد من الزمان نشاطاً أهلياً ملحوظاً في إقامة الدورات

الأسريّة التوعويّة، سواء للمقبلين على الزواج، أو للمتزوجين فعلاً، بما يشمل قضايا شرعية وقانونية ونفسية واجتماعية وصحيّة متعدّدة. وللأسف فإنّ دوامة العنف واللا استقرار التي شهدتها المنطقة خلال السنوات الماضية أثّرت بشكل سلبي وواضح على مثل هذه الأنشطة والفعاليات.

بالطبع أنا لا أتحدّث عن الدورات التي يستهدف القائمون عليها المنفعة المادية، فالبعض يحوّل كل شيء إلى بزنس.. بل أتحدّث عن الدورات وورش العمل التطوّعيّة المنطلقة من الإحساس بالمسؤولية الرسالية والوطنية والإنسانية والتي بدأنا نلاحظ عودتها الخجولة، ونتمنّى أن تستمر وتتمو.

إنّ استقرار الأوضاع الأسرية والحياة الزوجية يُحقّق جانباً مهماً من استقرار الوطن وأمنه وتتميته، بينما تُعدّ كثرة حالات الطلاق في المجتمع مؤشراً غير صحيّ يستدعي العناية والدراسة الجادّة. وإذ تُبيّن بعض الاستبانات والدراسات الميدانية أن عدداً ملحوظاً من حالات الطلاق كان بالإمكان تفاديها لو وُجد الزوجان من يرشدهما ويصلح بينهما، فإنّ هذا يتطلّب من الجهات الحكومية والأهلية بذل المزيد من الجهد والابتكار في أساليب الإصلاح الأسري،

وذلك من قبيل:

١. تكثيف الدورات والبرامج وورشِ العمل التوعوية من جهة، والساعية لإصلاح ذات البين من جهة أخرى، على أن لا تقتصر على الزوجين فقط، بل ولتشمل أولياء أمورهم أيضاً، وذلك بغرض التوعية بشأن تخفيف حالات التدخّل السلبي الصادرة عنهم، وكل ذلك يحتاج إلى التفكير في المحفّزات المتنوّعة التي يُمكن لها أن تشجّعهم على المشاركة الفاعلة فيها.

٢. تعيين الأخصائيين النفسيين والاجتماعيين والقانونيين من أهل الخبرة، والمرشدين الدينيين من أهل التقوى والصلاح في مراكز الشرطة، وفي المراكز الخدمية داخل المناطق السكنية.

٣. تفعيل وتطوير الخط الساخن للتواصل مع أصحاب الاختصاص أعلاه بما يُيسّر من عملية التدخّل السريع لحلّ الأزمات الزوجية.



التفرعن والتنمر

تَفْرَعُنُ الزوج، وَتَتَمَّرُ الزوجة.. حالتان مدمرتان للأسرة، وتأثيراتهما لا تتوقف عند حدِّ إثارة القلق وعدم الاستقرار فيها، بل تتجاوز ذلك لتترك بصماتها على الأبناء على المستوى النفسي والسلوكي.

• خلفيّة عنوان التفرعن:

من خلال الحديث القرآني عن فرعون موسى «عليه السلام»، أخذت الشخصية الفرعونية طابعاً خاصاً في الثقافة العربية، وفي الذهنية العامة.. فهو:

١. الطاغوت الذي تضحّت شخصيته بحيث لا يرى إلا ذاته المتعالية: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾^(١).

٢. وطغيانه هذا يدفعه إلى احتقار كل من سواه، وتبرير كل ما يفعله، لأن كل ما يفعله هو الصواب، بل هو في ذاته وجوده عين الصواب: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٢).

٣. وهذا التعالي قد يبلغ المرتبة التالية: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾^(٣). وليس بالضرورة أن يقول هذا الكلام.. ولكنّ لربما أفعاله هي التي تنم عن ذلك، بحيث يجعل نفسه كالإله، يفعل ما يشاء.

٤. ومن أجل أن يسيطر ويحقّق لنفسه ما يريد، ولأنّه لا يرى قيمةً للآخرين الذين يقعون تحت نفوذه، فهو يمارس معهم ما شاء من صور الطغيان: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ

(١) سورة طه: ٢٤.

(٢) سورة غافر: ٢٩.

(٣) سورة القصص: ٣٨.

وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ^(١). وليس بالضرورة أن تبلغ أفعال الشخصية الفرعونية هذا المستوى من الإجرام، ولكنها من هذا النمط المفرق والمؤذي والمدمر للنفس وللشخصية.

٥. وهو متمادي في أفعاله وتصرفاته وطغيانه إلى درجة الإسراف فيها: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ^(٢)﴾.

٦. وقد تبلغ الأمور مستوى من الطغيان الذي يتمنى فيه مَنْ وقع تحت سلطانه الخلاص منه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(٣)﴾.

وهكذا ظهر عنوان (فرعون) واشتقاقات هذه الكلمة من قبيل: (تفرعن) و (متفرعن) لتدل في الذهنية العامة على رمزية الطغيان والتعالي والتجبر.

(١) سورة القصص: ٤.

(٢) سورة يونس: ٨٣.

(٣) سورة التحريم: ١١.

بالطبع، ليس بالضرورة أن يكون الإنسان في موقع الحكم كي يكون فرعوناً.. ففي كل موقع فيه نوع من القيادة والسلطة يمكن أن يظهر لنا فرعون بحجم مختلف وبهيئة مغايرة.

• نماذج من التضرع:

في دائرة العمل والوظيفة يمكن أن يظهر فرعون.. وفي العمل الحزبي يمكن أن يظهر فرعون.. وفي الشارع يمكن أن يظهر فرعون.. وفي الدوائر التعليمية يمكن أن يظهر فرعون.. وفي البيت يمكن أن يظهر فرعون.. وهو ما أود أن أتحدّث عنه اليوم.

بعض الأسر تعاني من رب الأسرة المتضرع.. الزوجة تعاني.. والأبناء يعانون.. ولربما عانت منه أيضاً زوجات أبنائه في المستقبل، وعانى منه أحفاده... كل الصور التي تحدّثتُ عنها حول فرعون حاضرة في شخصيته وتصرفاته وطريقة إدارته. وهذا قد يؤدّي إلى تدمير شخصية أبنائه، إذ يلغي كل رأي لهم، حتى إذا دخل هذا الولد عالم الزواج فقد القدرة على إدارة بيت الزوجية، وكان أبوه هو الذي يوجّه كدفة السفينة. ولا يعرف هذا الولد من إدارة بيت

الزوجية إلا الصورة التي رسخت في ذهنه من ممارسات أبيه.. ضرب وشتائم وإهانات وتحقير.

وقد تتخذ الشخصية المتفرعة إجراءات وقرارات تدمر الأسرة اجتماعياً أو اقتصادياً، وذلك بقرار أحق ومزاجي، بلا تفكير سليم، ولا استشارة، ولا مشاركة زوجته وأبنائه في ذلك.. يصدر الفرمان وعلى الجميع أن يطيعوا.

يدخل رب الأسرة في نزاع شخصي مع إخوانه مثلاً، أو مع بعض أهل زوجته، ويصدر الأمر الفرعوني.. منع تام لأي نوع من التواصل الاجتماعي معهم! قطع أرحام قد يمتد لعقود من الزمان، ويتوارثه الأبناء.. والتبرير حاضر: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

بمعاملة (تجارية) مزاجية يفقد من خلالها ممتلكاته بما في ذلك المنزل الذي يؤوي الأسرة، ويحوّل حياتهم الكريمة إلى جحيم الديون والسجون... يجلس في الديوانية، ويتأثر بالكلام الذي يدور فيها، ويُغرى بالأرباح السريعة، ولا يفكر باحتمالات الخسارة التي قد تضيع كل شيء، وهذه هي النتيجة.

• بين القوامة والتضرع:

المطلوب من رب الأسرة أن يمارس قوامته: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾^(١)، إلا أن القوامة شيء، والتضرع شيء آخر، فالقوامة لا تعني إلغاء الآخر، الزوجة.. والأبناء.. فلا رأي لهم، ولا قيمة، ولا هوية، ولا اختيار، ولا شخصية مستقلة.. خاصة في القرارات المهمة والكبيرة والمصيرية.. بل تعني القيادة والإدارة.. وهذا في حد ذاته فن، ويحتاج إلى مهارات. وعندما تطلع اليوم على فن الإدارة تُدرك أن المدير الناجح هو الذي يستطيع الارتقاء بالمهمة الموكلة إليه بمساعدة مرؤوسيه، ولعل أبلغ ما يصور ذلك قوله تعالى «عز وجل»: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾^(٢).

على مستوى أسلوب القيادة، هناك حزم وهناك لين..

(١) سورة النساء: ٣٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٩.

فالإنسان الفضل غليظ القلب شخصية طاردة، ولو كان زوجاً أو أباً.. قد يصل إلى مبتغاه، ولكنه لا يستطيع أن يصل إلى القلوب.

وإذا كانت هناك أمور لا يستطيع التنازل عنها، لأنها لا تصبّ في مصلحتهم، أو لأنها محرّمة، المطلوب هنا أن يكون حازماً.. والحزم لا يعني العنف الكلامي، ولا العنف الجسدي.. ولذا عليه أن يمزج هذا الحزم باللين.. أن يبين لهم لماذا.. وأن يظهر لهم المحبة.. وأن يدعو لهم بالخير. وكما قال علي «عليه السلام»: (وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ) وليس بالضرورة أن يكون حاكم دولة، فالرعية هم من يراهم (وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِمْ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ) ^(١).

ثم على مستوى القرارات الهامة والكبيرة يجب أن ينتبه رب الأسرة إلى أنه قد تغيب عنه بعض التفاصيل.. وقد لا ينتبه إلى بعض النتائج السلبية المحتملة.. كما أن أصل إشراك أسرته في قراراته يحسّسهم بقيمتهم وأهميتهم عنده.

(١) الرضي: نهج البلاغة، الكتب والرسائل، ٥٣.

• الزوجة المتنمرة:

وفي مقابل الزوج المتفرعن، هناك الزوجة المتنمرة، والمصطلح مشتق من (النمر)، فكما ذكرتُ أنَّ الشخصية الفرعونية المعروضة في القرآن تركت أثرها على اللغة والثقافة العربية، فظهر مصطلح التفرعن، كذلك نجد مصطلح (التنمر) المشتق من النمر، وهو المفترس المعروف. جاء في المعاجم: (تَمَرَّ الشَّخْصُ: نَمَرَ؛ غَضِبَ وساء خلقه، وصار كالنَّمِرِ الغاضب). ولذا صار يُطْلَقُ على المرأة العنيفة، وذات اللسان السليط مصطلح (المتنمرة)، وفي التعبير الشعبي الدارج عندنا (النُّسرة) اشتقاقاً من طائر النُّسر الجارح.

ومن لطيف ما قرأت قول الحكيم (بزرجمهر) أحد وزراء بلاد فارس: (صارعتُ الوحوشَ فصرعتُهُم، وجالدتُ الشجعانَ فغلبيتُهُم، فلم تُرهبنِي إلا المرأةُ السليطةُ اللسان).

وللعلامة الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) مقولة أخرى طريفة، قال: (الصبر على لسان النساء مما يُمتَحَن به الأولياء).

وكل زوج معرض لأن يكون في موقع تمارس من خلاله زوجته ضغطاً نفسياً كبيراً بحيث تدفعه إلى اتخاذ موقف مخالف لرغبته، حتى رسول الله «صلى الله عليه وآله» اضطر لأن يتنازل عن مباح ويُقسم على تركه تحت ضغط بعض أزواجه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ، قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾^(١).

• معاناة النبي:

تحكي سورة التحريم واحدة من صور المعاناة ذات الطابع الاجتماعي التي واجهها رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وهي ذات طابع خاص، ولدائرة خاصة، لأنها ترتبط بالخصوصية الأسرية للنبي. وعرضها في القرآن الكريم وبهذه الصورة الممزوجة بالوعيد: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ، عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكُمْ مُّسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ

قَاتَنَاتٍ تَابَّاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴿١﴾ يُعْطِي
انطباعاً بأن القضية تركت أثراً نفسياً عميقاً في مشاعر
النبي «صلى الله عليه وآله»، الأمر الذي استدعى التدخل
السمائي انتصاراً له، وحسماً للموقف.

والذي يؤكد هذه الصورة ما قام به النبي للتخلص من
الضغط الممارس عليه، إذ أقسم على ترك أمر لم تذكر
الآيات ماهيته، ولكننا نعرف من السياق أنه كان في الأصل
أمرًا مباحاً له، فأثر الامتناع عنه، والغاية بحسب تعبير
الآية: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾.

في موروثنا الإسلامي هناك أحاديث عديدة تحاول من
خلال الضرب على الوتر الأخرى أن تهذب سلوك هذه
النوعية من النساء خوفاً من سوء العاقبة، وذلك من قبيل ما
رُوي عن الصادق أنه قال: (أَيُّمَا امْرَأَةٍ بَاتَتْ وَزَوْجَهَا عَلَيْهَا
سَاطِطٌ فِي حَقٍّ، لَمْ تُقْبَلْ مِنْهَا صَلَاةٌ حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا) (٢).

والقيد المذكور في هذا النص (في حق) مهم في فهم

(١) سورة التحريم: ٣-٤.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٢٥٣٠٥.

سائر النصوص، فليست المسألة مجرد غضب الزوج على زوجته مطلقاً، كي نقول أنَّ هذه النصوص ذكورية، بل في الحالات التي يكون فيها الحقُّ معه.. فالله هو الحكم العدل، وهو لا ينتصر لطرفٍ ما بلحاظ جنسه.

• الزوجان في مواجهة النتائج:

ومن جهة أخرى فإنَّ هذه النصوص التي تتحدّث عن العواقب الأخرويّة الوخيمة ليست مقصورة على المرأة كي يُقال مرّة أخرى بأنها وُضِعَتْ انتصاراً للذكر على الأنثى، إذ نجد على سبيل المثال الحديث النبوي التالي: (أَيُّمَا امْرَأَةٍ آذَتْ زَوْجَهَا بَلَسَانَهَا لَمْ يَقْبَلِ اللَّهُ مِنْهَا صِرْفاً وَلَا عدلاً، وَلَا حَسَنَةً مِنْ عَمَلِهَا، حَتَّى تَرْضِيَهُ..... وكذلك الرَّجُلُ إِذَا كَانَ لَهَا ظالماً)^(١).

والمتتبع للأحاديث يجد أنَّ هناك تأكيداً على حقِّ الزوج في نيل الاحترام على المستوى الشخصي، والتقدير لمقام القِوامة الذي اختاره الله له، وربط ذلك بالرضا الإلهي عنها في الآخرة.

(١) الصدوق: الأمالي، ص ٤٢٩.

ومن بين هذه الأحاديث ما روي عن النبي أنه قال: (لا تؤدّي المرأة حقّ الله «عزّوجل»، حتّى تؤدّي حقّ زوجها)^(١).

وعنه «صلى الله عليه وآله»: (أيّما امرأة لم ترفق بزوجها، وحملت على ما لا يقدر عليه، وما لا يطيق، لم يقبل منها حسنة، وتلقى الله وهو عليها غضبان)^(٢). وعن الإمام الصادق «عليه السلام» أنه قال: (أيّما امرأة قالت لزوجها: ما رأيت قط من وجهك خيراً، فقد حبط عملها)^(٣).

هذه الصور المذكورة في القرآن وفي الأحاديث صورٌ نمطيّة متكرّرة تظهر في سلوك المرأة المتمنّرة بأشكال وألفاظ متغايرة، ومؤدّاها واحد، وهي قد تكون ناتجة عن:

١. سوء تربية في البيت الذي نشأت فيه.
٢. أو تأثراً وتطبّعاً بسلوك أمّها، فلا تعرف أسلوباً آخر للتعامل مع الزوج سوى ذلك.
٣. أو نتيجة تسويلات وتحريضات صديقاتها أو وسائل الإعلام والتواصل.

(١) الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٩.

(٢) الصدوق: الأمالي، ص ٤٣٠.

(٣) الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٤٤٠.

٤. ولربما يساهم الزوج نفسه في نفخ روحية التتمّر فيها، وذلك عندما تجد الزوجة أن زوجها:

أ. ضعيف الشخصية، لا يملك ثقةً في نفسه، كثير التردد، قليل الهمة، غير مُبادر.

ب . أو قد تخلّى عن مسؤولياته وواجباته الأسرية الطبيعية، فهي التي تُنفق، وهي التي تتسوّق، وهي التي تُنجز المعاملات، وهي التي تتابع الشؤون التعليمية والصحية لأبنائها.. إلخ.

وبهذا تجد الزوجة أنّ مَنْ يُفترض به أن تكون له القِوامة، وإدارة شؤون الأسرة بالأصالة، قد تخلّى عنها، لتقوم هي بتقمّص شخصية (سي السيّد).

وأيّاً كانت الأسباب، فإنّ عاقبة مخالفة الفطرة السليمة، والتتمرد على نظام القِوامة في الأسرة والذي رسم معالمه القرآن الكريم، وذلك من خلال الدور الذي تمارسه الزوجة المتمترة، لن تقف آثاره السلبية عند حدّ تهديد استمرار العلاقة الزوجية، بما يتناغم مع قول الله «عزّوجل» لنبيه الكريم: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَقَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَنَّ

مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ
وَأَبْكَارًا ﴿١﴾، بل وتتجاوز ذلك لتُلقِي بظلالها على تربية الأبناء،
وبناء شخصياتهم، وعلى المستقبل الأخرى المظلّم الذي
ينتظرها حين تقف بين يدي الله «عزّوجل».



زوجي نكدي

روى الشيخ الصدوق في (من لا يحضره الفقيه) عن جميل بن دراج عن أبي عبد الله «عليه السلام» أنه قال: (أَيُّمَا امْرَأَةٍ قَالَتْ لَزَوْجِهَا: مَا رَأَيْتُ قَطُّ مِنْ وَجْهِكَ خَيْرًا فَقَدْ حَبَطَ عَمَلُهَا) ^(١).

عند الحديث عن النكد في الحياة الزوجية، فإن الكلام يدور عادة حول الزوجة النكدية.. والرواية السابقة تتناول واحدة من الصفات والسلوكيات النمطية لهذا النموذج من النساء. ولكن الإنصاف يقتضي أن نُعَمِّم الأمر على الطرفين.. فالزوج قد يكون نكدياً تماماً كما أن الزوجة قد تكون كذلك.. والرواية التالية تحذّر الرجل من أن يتحوّل إلى

(١) الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٤٤٠.

زوج نكدي. فقد روي عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (أخبرني أخي جبرئيل، ولم يزل يوصيني بالنساء حتى ظننت أن لا يحل لزوجها أن يقول لها أف، يا محمد، اتقوا الله عز وجل في النساء، فإنهن عوان بين أيديكم) في أسركم وتحت سلطتكم (أخذتموهن على أمانات الله عز وجل لما استحللتم من فروجهن بكلمة الله وكتابه من فريضة وسنة وشريعة محمد بن عبد الله «صلى الله عليه وآله»، فإنَّ لهنَّ عليكم حقاً واجباً لما استحللتم من أجسامهن، وبما واصلتم من أبدانهن، ويحملن أولادكم في أحشائهن حتى أخذهن الطلق من ذلك، فأشفقوا عليهن، وطيبوا قلوبهن حتى يقفن معكم، ولا تُكرهوا النساء، ولا تسخطوا بهن، ولا تأخذوا مما أتيتموهن شيئاً إلا برضاهن وإذنهن)^(١).

• صناعة النكد:

ثم إنَّ صناعة النكد لا تقتصر على عمر معين، ولا على شريحة محددة، وإن برزت في كثير من الأحيان عند الأزواج الذين يتغيّر نمط حياتهم فجأة. ففي حالة التقاعد

(١) النوري: مستدرک وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٥٢.

من وظيفته مثلاً، يعاني الرجل من حالة من الفراغ، وتغيّر نمط الحياة، والرتابة، وقد تصحب ذلك حالة من فقدان الإحساس بالأمان الاجتماعي ومجهولية المستقبل بالنسبة إليه مع كبر السن، والخوف من مفاجآت التي قد لا يستطيع مواجهتها. وقد يكون المزاج النكدي ناشئاً عن سوء تربية في الطفولة، من خلال الكبت والاحتقار.. أو تأثراً بالبيئة التي عاش فيها مع والديه من قبل، فأخذ عنهما تجربتهما في الحياة الزوجية. أي أنها في كثير من الأحيان ليست متعمّدة، ولذا يجب التعامل معها بعيداً عن سوء الظن والاتهام بالتقصّد.

• التفتّن في النكد:

والغريب في الأمر أن الإنسان النكدي يتفتّن في أساليب التنكيد ويُبديع فيها، مما يفتح له مجالاً واسعاً لكي يُشبع نهمه في هذا الإطار. يقال أن أحد الأزواج وبعد معاناته مع زوجته النكدية، هداه الله إلى فكرة عبقرية ظن أنها سوف تريحه قليلاً من النكد اليومي، فاقترح على زوجته أن يقتسم معها أيام الأسبوع، يوم نكد ويوم دون نكد، وبعد موافقة الزوجة

على مضض طار الزوج فرحاً لنجاحه في إتمام الاتفاق الذي بمقتضاه سيفوز بنصف عمره بلا نكد. ومن خلال القرعة صار أول يوم من نصيبها، فتفننت الزوجة في كل أساليب وصنوف النكد على الزوج، وهو صابر، ولكن ما إن جاء اليوم التالي حتى وجد الزوجة تترنم مع نفسها «بكرة بكرة النكد بكرة»، وبذلك نكّدت عليه يوم إجازته من النكد أيضاً.

• أهم صفات النكدي:

ومع التأكيد على أنني لست في وارد الانتصار لهذا الطرف أو ذاك، إلا أن ندرة الكلام عن الزوج النكدي تستدعي مني أن أركز على هذا النموذج من الأزواج.. وأهم صفاته والتي يشترك في كثير منها مع الزوجة النكدية، ومعرفة الصفات تعين على التشخيص ثم العلاج:

١. عابس كثير الصمت عند مجالسته لزوجته وأسرتة، لا يتداول شؤون الحياة الزوجية ولا غير ذلك من القضايا، وإذا تحدّث افتعل المشكلات والخلافات.

٢. ضيق الصدر، وقابل للاشتعال غضباً لأتفه الأسباب، فهو يضخم الأمور البسيطة، ويحوّلها إلى محور للنزاع.

٣. كثير التشكّي من الوضع المحيط به، لاسيما الوضع المحيط به في المنزل.

٤. لا يعرف من الحياة الزوجية إلا الفراش، وبشكل يخلو من أية مشاعر، فهو بالنسبة إليه غرض جسدي بحت.

٥. لا يمانع أن يحوّل لحظات السعادة التي تغمر البيت إلى أجواء من الغضب والصراخ والحزن والتعاسة.. فهو من جهة عاجز عن صُنع الوضع الذي يُرضيه، ويصعب عليه من جهة أخرى أن يرى مَنْ حوله سعداء، ولذا فهو سرعان ما يقلب الطاولة على الجميع.

٦. يسترجع أحداث الماضي السلبية كوسيلة تنكيد مضمونة، فيذكر زوجته أو أبناءه بإخفاقاتهم أو ببعض مواقفهم السابقة، بكلام مباشر، أو غير مباشر، وبالهمز واللمز.

٧. سيء الظن.. فإذا تصرّف أحد الأطراف بما لا يروق له، اتّهمه بالتعمّد وأنه قصّده لشخصه.

• دراسة علمية :

أستاذ علم النفس في جامعة دينفر الأميركية وخبير

العلاقات الزوجية والصراعات الناجمة عنها (هوارد ماركممان) أجرى دراسة حول تأثير النكد على استمرار الحياة الزوجية، وشملت مئات من المشاركين من النساء والرجال، وتوصل من خلالها إلى أنّ الأزواج الذين يفقدون سعادتهم بعد خمسة أعوام على زواجهم يزداد لديهم التواصل السلبي (النكد) بنسبة ٢٠٪ أكثر من غيرهم.

وقال ماركممان: (إنّ طرفي العلاقة غالباً ما يستخدمان النكد في وقت معيّن، مع ذلك، فإنّ الشركاء الذين يتنبّهون لذلك ويحاولون كبح جماح نكدهم المتبادل، يمكنهم أن يحافظوا على مسار علاقتهم، وحتى على الحبّ الذي بُنيت عليه العلاقة. أما من يسيطر النكد على علاقتهم، فمصيرهم الانفصال غالباً). ومن هنا فإنّ الطرف الذي يعاني من نكد الآخر (زوجاً كان أو زوجة) ويحرص على العلاقة القائمة بين الطرفين عليه أن يتعامل مع الطرف النكدي من خلال مجموعة من الإجراءات:

١. مدح الطرف النكدي، لأنّه غالباً ما يعاني من الشعور بعدم الأمان، وعدم اهتمام الآخرين به، أو كثرة الانتقادات الموجهة إليه.

٢. تجاهل الأزمات التي يفتعلها الطرف النكدي، والتي غالباً ما تكون دون سبب حقيقي، والاهتمام بالأبناء وبأمور أخرى تبعده عن الانجرار إلى ملعب الخصومة والنزاع.

٣. استخدام أسلوب الحوار والتقارب مع الطرف النكدي في الأوقات المناسبة في إطار من المودة والحب لإذابة الخلافات والمشكلات المفتعلة والحفاظ على استقرار الأسرة واستمراريتها.

٤. محاولة تحديد السبب الرئيس وراء الحالة النكدية.. فإن كان هو الفراغ مثلاً، سعى الطرف إلى توجيه النكدي إلى ما يشغل به وقته بشكل مفيد.

٥. قلة العاطفة والرومانسية قد تكون من أسباب النكد الزوجي، وعلى الطرف الآخر البحث عن الوسائل التي من خلالها يمكن إنعاش هذا الجانب من الحياة الزوجية وابتكار الأساليب الكفيلة بتغيير المزاج الرومانسي لديه.

• أجواء انسجام:

إن الحياة الزوجية بحاجة إلى أجواء الانسجام والراحة النفسية والطمأنينة، ومن هنا نجد أن الله «عز وجل» يبين

أَنَّ قِوَامَ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ هُوَ السَّكَنُ وَالْمُودَّةُ وَالرَّحْمَةُ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَفِرُونَ﴾^(١)،
والنكد الذي قد يصدر عن الزوج أو الزوجة يعدّ حالة مرضية بحاجة إلى تشخيص ومبادرة إلى العلاج قبل أن يستفحل المرض ويصعب الحل.

(١) سورة الروم: ٢١.



ضيق الصدر

(ن) فتاة في العشرين من عمرها، لم يمضِ على عقد قرانها أكثر من شهر، تقف مع والدها أمام إحدى غرف المحكمة بانتظار الدخول على قاضي الأحوال الشخصية، أملاً في الحصول على الطلاق من زوجها (ج) الذي لا يكبرها أكثر من ثلاث سنوات. على وجهها مزيج من مشاعر الغضب والحزن، وعيناها المحمرّتان تقولان الكثير... أما الأب فإنه لا يفتأ يتمتم بكلمات تفوح منها رائحة اللوم والعتاب، وهو يسعى لإخفاء حالة الإحراج التي يشعر بها جرّاء كونه في مثل هذا الوضع الذي لا يحسده عليه أحد...

الأب: قلت لك لا فائدة تُرجى منه.. فحاله لا تتصلح.

وتردّ البنت المنكوبة: أنتم أجبرتموني على الزواج..

أردتُ أن أكمل دراستي فأجبرتموني على الزواج.

الأب: لن تتنازلي عن فلس واحد.. لا بد أن نُحرق قلبه
كما أحرق قلبك الصغير.. أنا يعاملني بهذه الطريقة؟ تمهلي
حتى ندخل على القاضي لتعلمي ما سأفعل.

وتدخل (نون) مع أبيها، لتبقى في دهاليز المحكمة
وأروقتها أشهراً طويلة -ولربما لسنوات- حتى يصدر الحكم
النهائي، فهي ليست أوّل من تقدم بطلب الطلاق، ولن تكون
آخر زوجة... فمثلاً بالمئات، كما أن مثل هذه القضايا لا
تقف -عادة- عند حدّ معيّن، بل هي قابلة لأن تتطوّر بحيث
يرفع كلّ طرف قضايا أخرى ذات صلة، إما انتقاماً، أو
بإدعاء ضياع الحقوق، أو لإنقاذ الأبناء من براثن الطرّف
الآخر الذي (لا يخاف الله)!

• تعددت الأسباب والطلاق واحد :

كثيرة هي الدراسات والاستبانات المنشورة بخصوص
أسباب الطلاق، إلا أن (ضيق الصدر) من العوامل الرئيسة،
وفي المقابل فإن (شرح الصدر) من العوامل المهمّة لضمان
استمرار العلاقة الزوجية، فضيّق الصدر قد يبلغ حدّ ما في

قول الله «عز وجل»: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾^(١).

وشرح الصدر من الأهمية بمكان حتى من الله «عز وجل» به على نبينا الأكرم «صلى الله عليه وآله» حين توجه إلى ربه بالخطاب - على ما هو المروي - قائلاً: (أي رب، أنه قد كان أنبياء قبلي، منهم من سخرت له الريح، و منهم من كان يحيي الموتى) فكأنه يطلب من الله أن يعطيه ما يقوي به شأنه، ويُعزز به دوره في إبلاغ الرسالة، فجاءه الخطاب القرآني: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ، وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾^(٢)، لأن شرح الصدر يعني أن يكون قلب الإنسان واسعاً كالبحر، لا تظهر فيه المؤثرات السلبية، وإذا ظهرت سرعان ما تختفي وتزول، ويبقى البحر.

• النبي موسى وشرح الصدر:

شرح الصدر كان هو المطلوب الأول للنبي الكريم موسى

(١) سورة التوبة: ١١٨.

(٢) سورة الشرح: ٤-١.

«عليه السلام» حين أمره الله «عز وجل» أن يبلغ كلمته لفرعون: ﴿اذهبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾^(١)، فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾^(٢)، فما الذي كان يقلقه ويخافه؟ ﴿رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾^(٣)، و ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ... وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾^(٤).

وهذا يعني أنه عند طغيان الطرف الآخر الذي نتعامل معه، وتجاوزه الحد في أدب التعامل ومراعاة طبيعة العلاقة، وقيمة الإنسان، وعندما يفرط الطرف الآخر فيشتتم ويسئ، فنحن بحاجة حينئذ أن يكون قلبنا كالبحر الذي يستقبل الماء الآسن، ويواجه الريح العنيفة، فلا يتأثر، وإذا تأثر سرعان ما يعود إلى حالته السابقة، ويبقى قوياً قادراً على النهوض من جديد والاستمرار في طريقه.

• طلاق ضيق الصدر:

وعلى ما تقدّم، فإن عاملاً مهماً في بروز المشكلات

(١) سورة طه: ٢٤.

(٢) سورة طه: ٢٥.

(٣) سورة طه: ٤٥.

(٤) سورة الشعراء: ١٢-١٤.

التي تواجه الزوجين وتضخمهما - لاسيما عند حديثي العهد بالزواج - يتمثل في ضيق الصدر عند الطرفين، ومتى ما تحلى الطرفان بسعة الصدر، فإنَّ بمقدورهما أن يكملا مشوار الحياة... وإن كبا أحدهما أخذ الآخر بيده، لأنَّ المسألة عندهما ليست مسألة تحدٍّ ولا (كسر عظم)، وإنما هو كيان توافقا على إنشائه، وتعاهدا على بذل الجهد لترسيخ أركانه، ولأنَّهما يُدركان أن العفو عن زلل الآخر لن يزيد مَنْ عفا إلا عزاً.

• وصفة سماوية:

هناك ثلاثة أبعاد لصحة الإنسان:

١. صحة الجسد: ويقابلها مثلاً أمراض الكلى والجروح وارتفاع ضغط العين... إلخ.
 ٢. الصحة العقلية: ويقابلها مثلاً الفصام، الخرف، الاضطراب ثنائي القطب... إلخ.
 ٣. الصحة النفسية: ويقابلها اضطرابات من قبيل: القلق، الاكتئاب النفسي، الرهاب... إلخ.
- وتعتبر الضغوط النفسية واحدة من أكثر العوامل النفسية

شيوعاً والمؤثرة سلباً على الصحة الجسدية أو النفسية أو العقلية، وتترتب عليها اضطرابات كالأرق، والاكتئاب، وضعف التركيز، وسرعة الغضب، وسوء الهضم، والإجهاد السريع، وارتفاع ضغط الدم.... إلخ.

الضغط النفسي قد ينتج عن المواقف الصعبة التي نمرّ بها في حياتنا، في فترة زمنية محدودة جداً، كفترة الاختبارات المدرسية التي يمرّ بها الطالب مثلاً، أو ممتدة نسبياً كحالة الفقر مثلاً، والمشاكل الزوجية التي لا تجد أفقاً لحلّها.

وليس بالضرورة أن تكون هذه المواقف الصعبة أموراً محزنة، كالإعاقة والخلافات الزوجية وفقدان عزيز، بل قد تكون أموراً سعيدة من قبيل الإقبال على الزواج أو الانتقال إلى بيت جديد... كل هذا قد يسبب الضغط النفسي والذي قد يؤثر على حياة الإنسان بشكل سلبي، على المستوى الجسدي والعقلي والنفسي، وبالتالي على عطاء الإنسان، وفاعليته في الحياة، وكيفية تعامله مع المسببات والخلفيات العملية لهذا الضغط النفسي، وعلى مستوى العلاقة مع الطرف الآخر الذي قد يكون شريكاً في الوضع القائم.

القرآن أشار إلى إمكانية أن يعيش الإنسان تحت وطأة الضغط النفسي نتيجة المواقف الصعبة التي قد تتراكم فتكون ضخمة من حيث الكم، أو بسبب نوعية تلك المواقف، أي من حيث الكيف.

قال الله «تعالى»: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾^(١) وهو وصف لحال النبي «صلى الله عليه وآله» وهو يعيش التحديات المتزايدة، ويواجه المواقف الصعبة، خلال محاولاته المتعاقبة على مدى سنوات لإقناع قريش برسائلته... ضيق الصدر هنا تعبير عن حجم الضغط النفسي الذي كان يعاني منه النبي «صلى الله عليه وآله» في تلك الظروف المقتربة بالكذب والاستهزاء والتحقير والإهانة، وتعذيب وقتل بعض المؤمنين، وعدم استجابة السماء لمطالبات المشركين بنزول الآيات المادية (المعاجز)، ومحدودية عدد المؤمنين بالرسالة، واقتصارهم في الأعم الأغلب على المستضعفين من الناس، وعدم وجود أفق واضح لتغيير الأوضاع إلى الأحسن، وأمثال ذلك.

ونجد أيضاً نداء النبي موسى «عليه السلام» حين جاءه

الأمر الإلهي بالقيام بالرسالة: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ
 أَنْتَ اقْصِمَ الظَّالِمِينَ، قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ، قَالَ رَبِّ إِنِّي
 أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ، وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ
 إِلَيَّ هَارُونَ﴾^(١)... من الواضح هنا تأثير الضغط النفسي
 على إمكانية النجاح في أداء المهمة، وعلى أداء بعض
 الأعضاء لوظائفها بالشكل المطلوب ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾..
 أي أن الضغط النفسي يعيق فاعلية الإنسان.

ولكي يُحافظ على السلامة النفسية للنبي «صلى الله
 عليه وآله»، ولكي يستطيع أن يؤدي الرسالة بالمستوى
 المطلوب منه، وكي لا تُحبطه تلك المواقف، أو تُقلل من
 نشاطه وفاعليته، قدّمت آيات سورة الحجر وَصِفَة سَمَاوِيَةٍ
 مركبة تتمثل بالآتي:

١- أن يعيش الإنسان الإحساس بالثقة بالله «تعالى»..
 بقدرته ورحمته وعدالته وإحاطته بالأمور ليعيش الأمل
 والتفاؤل بالمستقبل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ.... إِنَّا
 كَفِينَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾^(٢).

(١) سورة الشعراء: ١٠-١٢.

(٢) سورة الحجر: ٨٦-٩٥.

٢- عدم تقييم الأمور بحسب ظاهرها ، بل السعي لامتلاك الوعي بسنن الله في الوجود وبفلسفة التنوع وتقلبات الحياة: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ﴾^(١).

٣- اعتماد الصفح منهجاً في التعامل مع الإساءات، وإرجاء محاسبة المسيئين إلى يوم الحساب الدقيق والعدل والناشيء عن الإيمان العميق والإحساس الدائم بالحقيقة الأخروية: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْغِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾^(٢).

٤- اتخاذ خطوة اجتماعية بالتقرب إلى الأجواء التي ينسجم معها الإنسان ويشعر بالارتياح إليها لانسجامها معه فكرياً أو نفسياً أو من حيث الميول وأمثال ذلك: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، فالتواضع مفتاح تقوية العلاقة بهم، وتحقيق المزيد من الانسجام والتآلف والتلاحم.

٥- الانفتاح على القرآن بمفاهيمه التي تُقدِّم لنا فلسفة

(١) سورة الحجر: ٨٨.

(٢) سورة الحجر: ٨٥.

(٣) سورة الحجر: ٨٨.

الحياة، وبتوجيهاته التي تُخَفِّف من أوجاعنا النفسية،
وبقصصه التي تُقَدِّم العِبَر: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي
وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾^(١).

٦- الإقبال على ذكر التسبيح والتحميد والسجود
والعبادة، وعلى رأسها الصلاة: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ
صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ،
وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

في علم النفس الإيجابي المعاصر -في نتائج تحصّلت
قبل أربعة عقود فقط- أنّ التدين وفعالية الذات والصلابة
النفسية والدعم الاجتماعي والعلاقات الطيبة والتفاؤل تمثّل
مجموعة من أهم عوامل وقاية ومقاومة الضغوط النفسية،
وهو ما يتوافق مع ما جاء في هذه السورة المباركة.



القاعدة الذهبية

جاء في جانب من وصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» لابنه الحسن المجتبي «عليه السلام» التي كتبها له بعد منصرفه من صفين: (يا بُنَيَّ، اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحب لغيرك ما تحب لنفسك، واکره له ما تکره لها)^(١).

هذه هي القاعدة المعروفة بالقاعدة الذهبية وتتلخص في العبارة التي ذكرها الإمام: (أحب لغيرك ما تحب لنفسك، واکره له ما تکره لها)، وصيغت بعبارات مختلفة ولكن مؤدّاها واحد.

(١) الشريف الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٣١.

وهي واحدة من قواعد العلاقات مع الآخرين في الفلسفة الأخلاقية وفي الأديان، ومن القواعد الأوسع انتشاراً في التعاليم الأخلاقية في العالم والأكثر قدماً، إذ كان لها موقع قدم في حضارات ما بين النهرين والصين وفي البوذية والكونفوشيوسية والزرادشتية وغيرها، كما تحدّث عنها فلاسفة اليونان، وقد تم إعلانها رسمياً في برلمان أديان العالم ضمن إعلان (نحو أخلاق عالمية) عام ١٩٩٣.

• قاعدة واضحة :

ومما يميّزها ويجعلها مفهومة وواضحة لكل أحد ولا تحتاج إلى الاعتماد على الآخرين لتقديم الإجابة حول طبيعة الموقف الذي ينبغي أن يتّخذه الإنسان في ظرف ما، أنها لا تحمل في داخلها أيّ توجيه لفعل محدّد أو ترك محدّد، فهي لا تقول: (كن صادقاً مع الغير كما تحب أن يكون الآخرون صادقين معك) ... أو (لا تكن كاذباً مع الغير كما لا تحب أن يكون الآخرون كاذبين معك) ... أو (كن عادلاً في قرارك كما تحب للآخرين أن يحكموا بالعدل معك في هذا الموقف) ... أو (اشهد بالحقّ أمام القاضي كما تحب

أَنْ يَشْهَدَ الْآخَرُونَ لَكَ بِالْحَقِّ) ... وَلَا تَقُولُ لَكَ: (هَذَا الْفِعْلُ مقبول وذاك مبغوض).

بل هي تقدّم معادلة واضحة جداً، معادلة وجدانية سهلة التطبيق، ضع نفسك مكان الآخر في هذا الموقف، ثم انظر ماذا تحبّ أن يكون تصرّف الآخر معك فيه، وبناء على ذلك تصرّف تجاهه بالمثل، وبغضّ النظر عن أي تمايز بينك وبينه.

بالطبع، فإن نجاح هذه القاعدة يقوم على أساس افتراض مسبق بأنك تحبّ الخير لنفسك وترفض الشرّ لها، وإلا فإنّ تطبيقها يكون خاطئاً فيما لو كان الإنسان معقداً أو مريضاً عقلياً أو نفسياً ويحبّ أن يُعذّب بيد الآخرين مثلاً.

أما تسميتها بالقاعدة الذهبية فتعود إلى القرن ١٧ الميلادي من قبل بعض رجال الدين المسيحيين، وذلك للدلالة على تفوّق هذه القاعدة على سائر القواعد الأخلاقية.

• في التعاليم الإسلامية :

ولهذه القاعدة حضور واضح وقوي في التعاليم الإسلامية، وأكّدت عليها نصوص عديدة. ويمكن تقسيم

النصوص الإسلامية في هذا الإطار إلى قسمين، النصوص المصرّحة بالقاعدة، وهي نصوص حديثية فقط، مثل وصية الإمام علي لابنه، والنصوص التي تقدّم أمثلة عملية على القاعدة، وهي قرآنية وحديثية، وذلك مثل قوله «سبحانه وتعالى»: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ، الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾^(١) فكما تحب أن تستوفي حَقَّك عند الشراء، أوف للناس حقهم عندما تباع لهم، مع ملاحظة استعمال كلمة (الناس) بما يدل على عمومية تطبيق القاعدة بغض النظر عن التمايز الديني فيما بينهم.

وهكذا نجد في سورة الضحى خطاباً موجهاً لرسول الله «صلى الله عليه وآله» في إطار تطبيقي للقاعدة الذهبية، حيث تبدأ الآيات بتذكيره بأوضاعه الخاصة السابقة ومعاناته وأمنيّاته آنذاك في هذا الإطار، ثم مطالبته بأن يتعامل مع الآخرين وفق التجربة التي عاشها وما كان يتمناه لنفسه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى، فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ، وَأَمَّا السَّائِلَ

فَلَا تَنْهَرْ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ^(١)، فلم تخصص الآية في حديثها التوجيهي هذا عنوان اليتيم أو السائل والمحتاج، بل هو حديث مطلق لاسيما بلحاظ أن الضحى من أوائل السور المكية، وغالبية المجتمع آنذاك من المشركين.

إذن، كما تُحب من صديقك أن يُخلص لك في صداقته، ويوقف إلى جوارك في الملمات، فعليك أن تبادله ذلك.

وكما تحب من جارك أن يراعي الجيرة فلا يزعجك.. راقب سلوكك وراجع تصرفاتك تجاهه، هل أنت له كما تحب أن يكون هو لك؟

وكما تريد من الآخرين أن يعاملوك باحترام وأنت تقود سيارتك، أو حين تُنجز معاملة، أو عندما تتبضع في الأسواق، أو عندما تتقف في الطابور.. كن أنت لهم كما تحب لهم يكونوا لك.

وكما تود أن تُراعى إنسانيته وشخصيته حين تسافر إلى بلد آخر، وتزعج لو أن أحداً احتقرك لأنك عربي، أو أهانك لأنك مسلم.. كذلك راعِ أنت إنسانية الوافدين إلى وطنك.

وكما تحب من عدوّك أو خصمك أن يعاملك بالعدل والإنصاف، فلا يتجنّى عليك، ولا يبهتك، ولا يلجأ إلى الكذب أو شهود الزور، فعليك أن تعامله بمثل ذلك.. وعلى هذا فقس، فالمعيار واحد.

• تطبيق علوي:

في كتاب المصنف لعبدالرزاق الصنعاني عن الحسن قال: (لما قَتَلَ عليٌّ «رضي الله عنه» الحَرورية قالوا: مَنْ هؤُلاءِ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنين؟ أَكْفارٌ هُم؟ قال: مِنْ الكُفَر قَرَّوا. قيل: فمُنافِقون؟ قال: إِنْ المِنافِقين لا يذكرون الله إِلَّا قَلِيلاً، وهؤُلاءِ يذكرون الله كَثِيراً. قيل: فَمَا هُم؟ قال: قَوْمٌ أَصَابَتْهُمُ فِتْنَةٌ فَعَمُّوا فِيهَا وَصَمُّوا)^(١).

كان الإمام علي «عليه السلام» في حالة حرب مع الخوارج، وكان بإمكانه توظيف السؤال السابق لمصلحته السياسية في هذا الصراع، فيحكم عليهم بالكفر، إلا أنه أنصفهم في الوصف كل الإنصاف.. لماذا؟ لأنه رجلُ العدل والإنصاف.. كان أبعد ما يكون عن الظلم.

(١) الصنعاني: المصنف، ج ١٠، ص ١٥٠.

• لا تظلم:

ولذا يُكمل «عليه السلام» وصيته لابنه الحسن فيقول: (ولا تَظْلِمَ كما لا تُحِب أن تُظْلَمَ) ... فالإنسان قد ينزعج من الظلم حين يكون ضعيفاً، ولكنه عندما يصبح قوياً يبرر لنفسه، ويستحسن بعض صور الظلم بمبررات مختلفة، وهنا عليه أن يتذكر أن دوام الحال من المحال، وأن الدوائر ستدور عليه في يوم ما... قد يفقد الموقع القوي، قد يفقد صحته، سيكبر ويضعف... ثم إن عقوبة الظالم في الآخرة شديدة، ويوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم.

عن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»: (إنه ليأتي العبد يوم القيامة وقد سرته حسناته، فيجئ الرجل فيقول: يا رب ظلمني هذا، فيؤخذ من حسناته فيجعل في حسنات الذي سأله، فما يزال كذلك حتى ما يبقى له حسنة، فإذا جاء من يسأله نظر إلى سيئاته فجعلت مع سيئات الرجل، فلا يزال يستوفى منه حتى يدخل النار)^(١).

إذن ضع نفسك مكان المظلوم لتعرف فداحة الأمر.

(١) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ٢، ص ١٧٧١.

ثم أضاف «عليه السلام»: (وَأَحْسَنُ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قُلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ).

• أم الزوج:

وهنا أود أن أخصص كلامي للعلاقة بين أم الزوج والكنة، لأن الضحية في كثير من الأحيان يكون هو الابن، أي الزوج... فالمفترض أن تكون العلاقة بينهما قائمة على أساس من:

١. الود

٢. الاحترام

٣. التسامح

٤. مراعاة طبيعة العلاقة الاجتماعية الجديدة

٥. تفهم كل طرف لنفسية الآخر وخصوصياته، لاسيما بلحاظ قدومه من بيئة أسرية مختلفة وأسلوب متمايز في الحياة.

ويزداد الأمر ضرورة وأهمية إذا كانت الكنة ستعيش مع أم زوجها في نفس البيت، إلا أن عديداً من الأسر - لاسيما حديثة التكوين - تعاني من مشكلة تدخل أم الزوج وانفعالاتها العصبية التي قد تصل إلى حد مطالبة الابن بتطليق زوجته أو تنكيد العيش عليها، مما قد يؤدي إلى تفككها، وذلك بسبب:

١. غيرة أم الزوج
٢. أو جهلها في طريقة التعامل مع الكنة
٣. أو لانعكاسات نفسية تعود لتجارب سابقة عاشتها هذه السيدة مع أم زوجها
٤. أو لجهل الكنة في أسلوب التعامل مع أم زوجها
٥. أو للجفاء الذي يتلبس طبيعة العلاقة بين الولد وأمه بعد زواجه وإقباله على زوجته
٦. أو إثارة الصمت وعدم التدخل، على أمل صلاح الأمور من تلقائها
٧. أو لتهربه من المشكلة إلى أن تتفاقم الأمور وتتعدد

وغير ذلك من الأسباب... ولذا لأبد من تقديم رسائل
لمثلث المشكلة: أم الزوج - الزوجة - الزوج.

• رسالة إلى أم الزوج:

١. ضعي نفسك مكان الزوجة، وتصرفي على هذا الأساس. أتحيين أن تكوني في موقع الكنة المظلومة، التي تعاني ما تعانيه من ضغوط، وشعور بتهديد مستقبل حياتها الزوجية، وضياع أبنائها في خضم احتمالية الطلاق؟

٢. ضعي حدوداً للغيرة والحسد وإثارة المشاكل التي قد يعود ضررها عليك في المقام الأول.

٣. تذكّري أن سعادة ولدك هي من سعادتك.

٤. تجاوزي وساوس الشيطان، وذاكري الماضي البئيس التي رسمت طبيعة العلاقة مع حماتك، وتذكّري أن بمقدورك أن تجعلي من هذه الكنة ابنةً تحنو عليك، وتُعينك في قادم الأيام، وأن تكون وسيلة ليزداد ابنك براً، بدلاً من أن تدفعيه للعقوق أو لتدمير حياة حلم أن تكون جميلة هادئة هائلة مع زوجة اختارها، أو اخترتها له فأحبّها.

٥. اسعي أن تكوني أما لها.. أم رؤوم تحيطينها بحنانك،
وتغفرين لها زلاتها، وتعطينها من خبرات الحياة ما
يعينها في مسؤولياتها تجاه زوجها وأبنائها.

• رسالة إلى الزوجة:

١. عليك بالصبر، والصفح، والتغاضي عن الزلات،
واحساب الأجر ما أمكن. قال «تعالى»: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ
إِلَّا بِاللَّهِ...﴾^(١)، فإنه بالصبر والرفق واحساب الأجر عند
الله تتألف القلوب وتتقارب النفوس، والله «تعالى» إذا أراد
بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق.

٢. تذكرني قول الله «تعالى»: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ
وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ
عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا
يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ، وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ
فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٢).

٣. اجعلي من اللجوء إلى الله الذي بيده مفاتيح القلوب،

(١) سورة النحل: ١٢٧.

(٢) سورة فصلت: ٣٤-٣٦.

ومن حسن الظن والتفاؤل والرضا والحلم مبادئ
تعتمد عليها في التعامل مع تصرفات حماتك.
٤. تذكّري أن سعادة زوجك أحد أركان الحياة السعيدة،
وسعادة الزوج من سعادة والدته.

• رسالة إلى الزوج:

لعلك - أيها الزوج - بحاجة إلى العناصر الأربعة المذكورة
في قوله «تعالى»: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ
يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^(١)،
فأنت بحاجة إلى الجانب المعرفي والأخلاقي والشرعي وإلى
الحكمة، وذلك بأن:

١. تعرف طبيعة العلاقة التي تربطك بوالدتك التي
عنوانها التعامل بالمعروف، وأنها نحو من العبادة التي
يتقرب بها إلى الله «تعالى».

٢. وأن توصل هذه الرسالة واضحة إلى زوجتك وتفهمها
ذلك، وتؤكد لها أن السعادة المنشودة في البيت الجديد
لن تتأتى إلا بنيل رضا الأم ودعائها، وما من زوجة

صالحة ترضى بأن تكون سبباً في عقوق الابن لوالدته،
وأن عليها أن تعينك في تجاوز المشكلة.

٣. أعمل عقلك وحكمتك لتتلافى ظلم أي من الطرفين،
أو تجاوز الحد الشرعي، أو تداعي البناء الأسري وتفككه.

٤. أنت غير ملزم من الناحية الشرعية بطاعة والدتك
في مسألة تطليق زوجتك.

٥. وعليك أن تعرف أن طبيعة العلاقة بينك وبين زوجتك
هي التعامل بالمعروف والحب والمودة والرحمة.

٦. ولا يجوز لك أن تسئ إلى الزوجة التي لم يصدر منها
ما تستحق من خلاله تلك الإساءة، فتظلمها، فمن يخف
الله لا يظلم الغريب، فكيف بظلم أقرب الناس إليه؟



العِزَّة الكاذبة

الوضع الطبيعي والعقلائي للإنسان أن يشعر بالعزة من جهة، وأن يسعى للحفاظ على كرامته من جهة أخرى. وقد ذكر علماء النفس أن إحساس المرء بعِزَّة نفسه، أي أن يشعر بأنه عزيز محترم في ذاته -وعند غيره- من موجبات سعادته... وفي المقابل، فإنَّ شعوره بالذلَّة والهوان وحقارة نفسه، يجلب له الشعور بالتعاسة والشقاء.

العزة والكرامة هبة الله الخالق «عز وجل»، وهو القائل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(١)،

وليس من حق الفرد أن يتنازل عن هذه الهبة الإلهية. ومن هنا نجد أن المجتمعات البشرية تحتقر وتستغرب سلوك مَنْ يهين نفسه، ويتصرف بصورة تدل على الضعة والاحتقار للذات، إلا إذا كان مثل هذا التصرف ناشئاً عن سبب وجيه. مثال ذلك مَنْ يدخل السلك العسكري وهو يعلم أنه سيتعرض لمواقف أثناء التدريب تجعله يتنازل عن شئ من كرامته وعزة نفسه، ففي مثل هذه الحالة لا يكون مُلاماً ومحتقراً من قبل المجتمع.

وفي القرآن الكريم توجيه صريح إلى أن العزة إنما تكون ممدوحة إذا كانت في مكانها المناسب، فمن جهة يقول «عز وجل»: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)، ومن جهة أخرى يقول «عز وجل»: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^(٢).

(١) سورة المنافقون: ٨.

(٢) سورة الإسراء: ٢٣-٢٤.

ونلاحظ كيف يصف الإمام زين العابدين «عليه السلام» هذه الحالة في دعائه لوالديه: (اللهم اجعلني أهابهما هيبة السلطان العسوف وأبرهما برّ الأمّ الرؤوف.... اللهم خفض لهما صوتي، وأطب لهما كلامي، وألن لهما عريكتي وأعطف عليهما قلبي، وصيّرني بهما رفيقاً، وعليهما شقيقاً....)^(١).

إذا أردنا أن نقيّم هذه الحالة من منظور فردي شخصي، فهي ليست سوى تنازل عن الشعور بالعِزّة، وليست في صورتها الظاهرية إلا تنازل عن الكرامة الشخصية.. ولكنها في عمق الصورة، وبمنظرة شمولية بعيدة عن النظرة الفردية الضيقة، ليست إلا رفعة وعزة وكرامة حقيقية. والسبب أن هذا التنازل هنا:

١. يتم عن إرادة وقناعة، وليس تحت الضغط.

٢. مرتبط بقيمة أخلاقية أعلى وهي بر الوالدين.

٣. يحقق نتائج مهمة على صعيد الأسرة، حيث يحقق لها عزتها وقوتها وتلاحمها وتراحمها وكرامتها، ويحقق للمجتمع ككل -من خلال قوة الأسر باعتبارها الوحدات الاجتماعية

(١) الإمام زين العابدين: الصحيفة السجادية، الدعاء ٢٤.

الصغيرة المؤلفة للمجتمع- العزة والقوة والتلاحم والتراحم والكرامة. من هنا نفهم أيضاً مغزى قول النبي «صلى الله عليه وآله»: (عليكم بالعفو، فإنَّ العفو لا يزيدُ العبدَ إلا عِزًّا، فتعافوا يُعزِّكم الله) ^(١)، وفي رواية أخرى: (من عفا عن مَظْلَمَةٍ، أبدَلَه الله بها عِزًّا في الدنيا والآخرة) ^(٢).

• التواضع والعِزة:

وعليه، فإن التنازل عن العزة في الموضع الصحيح في مثل أن يبادر الإنسان إلى طلب العفو من أخيه المؤمن، وإصلاح ذات البين، وإن لم يكن هو المخطيء أمر محبوب عند الله، ومن أسباب ارتفاع قيمة الإنسان عند ربه، وأن يرفعه الله «عز وجل» بين الناس من حيث لا يدري.

والتواضع في حدِّ ذاته تنازل عن شيء من عزة النفس، فقد تملك من المكانة الاجتماعية أو العلم أو السن أو المال ما يميِّزك ويرفعك على الطرف الآخر، ولكن مع هذا تخدمه إذا زارك أو طلب منك شيئاً، وتتودد إليه، وتتكلم معه دون أن

(١) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ٣، ص ٢٠١٣.

(٢) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ٣، ص ٢٠١٣.

تُشعره بأنه أعلى منه مستوى، بل لربما تشعره بعكس ذلك، كلها من صور التواضع.

روى المجلسي أنه: (دخل ضرار بن ضمرة على معاوية فقال له: صف لي علياً. فقال له: أو تعفيني من ذلك، فقال: لا أعفيك، فقال: كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتتطف الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته. كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه، ويناجي ربه، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشِب).

شخص يمثل هذا الوصف وهذه الامتيازات قد يترفع ويرى نفسه أعلى من الآخرين، إمّا لمّا يملكه من علم أو حكمة أو لزهده أو كثرة عبادته، ولكن لاحظ ما قاله ضرار بعد ذلك: (كان والله فينا كأحدنا، يدنينا إذا أتينا، ويجيبنا إذا سألناه، وكنا مع دنوه منا وقربنا منه لا نكلمه لهيبته، ولا نرفع أعيننا إليه لعظمته)^(١).

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٨٤، ص ١٥٦.

أي أنه في عين ما كان يملكه من امتيازات لم يترفع بها على أحد، بل كان فيهم كأحدهم، وهو تعبير مختصر ورائع جداً. من هنا امتدح الله «عز وجل» المؤمنين كالتالي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).
عندما تعيش هذه الحالة فإنَّ ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾.. أي نعمة عظيمة من الله، وقد وفقت لها، وهي لا تتحقق لكل أحد.. بل تتحقق لمن يحبهم الله ويحبونه.

• التنازل القبيح:

والإنسان لا يتنازل عن عزَّته وكرامته أمام الناس فقط، فقد يتنازل عنها في مقابل شهوة أو ولذة عابرة أو مال أو منصب. وقد سُئل عليّ «عليه السلام» يوماً: (أي ذلٌّ أذلٌّ؟ فقال: الحرص على الدنيا)^(٢).

(١) سورة المائدة: ٥٤.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٣٧٧.

فمن يحرص على الدُّنيا ويَقْبَلُ عليها إقبال جائع جشع
 نهم طمّاع، وكلّ همّه اكتناز المال، أو إشباع شهوته بصورة أو
 بأخرى، أو الحصول على منصب بأي ثمن، يكون ذليلاً لها،
 بمعنى أنه يكون مستعداً -في بعض المواقف- لأن يفعل أي
 شيء مهما كان قبيحاً أو محرماً أو لا يتناسب مع شخصيته
 أو ممنوعاً قانوناً أو بالنفاق والتزلف والكذب، كل ذلك من
 أجل أن يحصل على مراده. الصورة بشعة ومقرزة ولكنها
 مشهودة على طول الخط، وفي كل المستويات.

الشباب عندما يتعاطون المخدرات ويتحوّلون إلى
 مدمنين يصبحون عبيداً أذلاء لهذه السموم، ويكونون على
 استعداد لفعل أي شيء قد يصل إلى حد قتل أقرب المقربين
 إليهم أو بيع أنفسهم لتلبية شهوات الآخرين وبأحط صورة
 في مقابل الحصول على جرعة مخدر.

الشباب عندما يتقافزون أمام فتاة جميلة وكلّ منهم
 يحاول أن يُظهر عضلاته، أو مهاراته الفنية أو الرياضية،
 أو جمال خصلات شعره المصبوغ، أو ثرائه، هذا نوع من
 العبودية للشهوة وإذلال للنفس وإسقاط لها أمام غريزة
 زائلة... نفس هذا الشاب بعد أن يناله حظوته ويظفيء

غريزته بالقدر الكافي من هذه الفتاة يغير رقم موبيله ويتهرب منها، ولربما يحوّلها إلى أحد أصحابه... هذه قمة المهانة للنفس البشرية.

بعض المرشحين للانتخابات لنيل كرسي التمثيل في مجلس من المجالس العامة، يبيعون كراماتهم ويتنازلون عن عزة النفس، ويكونون على استعداد لفعل أي شيء، تقديم رشى... نيل رضا المافيات... التزلف الكاذب للناخبين... إطلاق الوعود المخادعة... بيع المواقف لأصحاب المال والسلطة... إلخ القائمة... المهم عندهم الفوز بهذا الكرسي. هذه قمة المهانة للنفس البشرية.

ولائحة الأذلاء تطول؛ وأما مصير من يطلب الكرامة والعزة عند غير الله «عز وجل» فكانتالي: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا، كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾^(١).

وفي الدعاء: (فكم يا إلهي من أناس طلبوا العزة بغيرك فذلّوا)^(٢).

(١) سورة مريم: ٨١-٨٢.

(٢) الإمام زين العابدين: الصحيفة السجادية، الدعاء ٧٤.

• العزة بين الزوجين:

وقد يعيش المؤمنون - من الجنسين - مثل هذه القيم الأخلاقية السلوكية الإيجابية مع أصدقائهم وأقربائهم أحياناً، ولكنهم ينسون أو يغفلون أو يتغافلون عنها عندما يتعلق الأمر بشريك الحياة.. الزوج تجاه زوجته، والزوجة تجاه زوجها. وهذا ملاحظ، وهو أمر غريب، لأن من المفترض أن تكون العلاقة الزوجية عاملاً وعنواناً إضافياً لمزيد من الحرص على أعمال مثل هذه القيم. فإذا كان المؤمن أخاً في الله، فعاملته وفق ذلك المعيار من العفو والتسامح والمبادرة بالاعتذار، وتعاليت على كبريائك، وتغافلت عن عزة نفسك وكرامتها، انسجماً مع التعاليم الإسلامية في ما له علاقة بحقوق الأخوة، ورغبةً في استمرار العلاقة بينكما، فإن ما يجمع الزوج وزوجته، والزوجة بزوجها أكثر من ذلك، لأن عنوان الزوجية لم يبلغ حقوق الأخوة بالله فيما بينهما.

وما جاء - مثلاً - في سورة الحجرات من الآية العاشرة إلى الثانية عشرة من تعاليم تُنظّم العلاقة الأخوية الإيمانية بالإصلاح، وعدم السخرية، وعدم اللمز والتنازع بالألقاب، واجتناب الكثير من الظن، وعدم التجسس، وعدم الاغتياب،

ورعاية تقوى الله في العلاقة، كل هذه العناوين تبقى قائمة بين الزوجين.. بل هي أولى فيما بينهما مما لو كانت مع أخيك أو أختك في الله.

العلاقة الزوجية كغيرها من العلاقات الإنسانية، معرضة لوقوع المشاحنات والمشاجرات، وقد تتأزم الأوضاع بين الزوجين، وقد تصل إلى مرحلة حرجة.. وتأتي مسألة الكرامة والعزة كواحدة من عوائق المبادرة للمصالحة وتجاوز الخلافات.

فالمرأة تشعر بأن إقدامها على هذه الخطوة فيه انتقاص من كرامتها، وتجاوز على أنوثتها، لأن من المفترض أن تكون المبادرة بالاهتمام والدلال صادرة عن الرجل. وفي المقابل، فإن الرجل يشعر بأن ذكوريته وقوامته على الأسرة وشخصيته لا تسمح له بالتذلل للفرد الأضعف في التركيبة الأسرية، خاصة وأن كلمته يجب أن تكون هي المسموعة، وعلى الزوجة أن تطيعه، لا أن تناقشه وتخالف أوامره.

ولكن المصلحة العليا -وهي المحافظة على الأسرة والحالة الزوجية والميثاق الغليظ- تفرض عدم الاعتناء بكل

هذا، وتجاوز العزة الكاذبة، والكبرياء في غير محله.. فرب العزة الذي نظم العلاقات الإنسانية يريد من الطرفين أن يضعوا كل شئ في موضعه.. هذه هي الحكمة.

الحكمة في أن يبادر أحدهما بتجاوز المشكلة.. بالاعتذار بطريقة ما.. أن يكون شجاعاً بما فيه الكفاية لطرح الحلول الناجعة، وعلى الآخر أن يقبل ذلك الاعتذار ويقدر له هذه المبادرة. طبعاً أنا لا أدعو إلى أن يتحمل طرف واحد مسئولية الاعتذار والتنازل على طول الخط، وإن كان الآخر مخطئاً، بل أن تكون المبادرة منطلقاً من الإحساس بالمسئولية والمودة والرحمة.

المكابرة في الخلافات الزوجية، والإصرار على استمرارها، بذريعة الحفاظ على عزة النفس، والكرامة الشخصية، لن تصنع إلا بيتاً تقيساً، وبيئة مشحونة بالصراعات، وأسرّة مفككة، وخلافات مستمرة، وقد أخبر الله عز وجل عن شأن بعض الطغاة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾^(١)، أي أن عزته الكاذبة الناشئة عن روحية الطغيان حملته على المكابرة على الاعتراف بارتكاب

الإثم المنهي عنه، وأغرته بالاستمرار على ارتكابه، وإن كان في قرارة نفسه يدرك الحقيقة، وأن الخير في الاعتراف وتصحيح الموقف.

ومن الممكن أن يتحوّل الزوج إلى طاغوت في بيته، وأن تصبح الزوجة طاغوتاً في إطار الأسرة، ومفتاح ذلك أن تأخذهما العزة الكاذبة والتشدد بالكرامة نحو تدمير رابط الزوجية من خلال الإصرار على الموقف، والمكابرة على الخطأ، والتعالي على التسامح، من دون مبرر حقيقي يستدعي ذلك، ولنستذكر من جديد قول النبي «صلى الله عليه وآله»: (عليكم بالعفو، فإن العفولاً يزيد العبد إلا عزاً، فتعافوا يُعزكم الله) (١).



العضو والتسامح

مما روي من وصايا الإمام الكاظم «عليه السلام» لُوَدِّه:
(يا بَنِيَّ، إِنِّي أَوْصِيكُمْ بِوَصِيَّةٍ مِّنْ حَفِظْهَا لَمْ يَضَعْ مَعَهَا؛ إِنْ
أَتَاكُمْ آتٍ فَأَسْمَعُكُمْ فِي الْأُذُنِ الْيُمْنَى مَكْرُوهًا، ثُمَّ تَحَوَّلْ إِلَى
الْأُذُنِ الْيُسْرَى فَاعْتَذِرْ وَقَالَ: لَمْ أَقُلْ شَيْئًا، فَاقْبَلُوا عُدْرَهُ) ^(١).

يرسِّخ الإمام في أبنائه قيمةً أخلاقيةً عملية، ليكونوا
الكاظمين للغيظ كما كان، والعافين عن الناس كما عُرف
عنه، حتى بات لقباً له. فلا يكفي أن نُطعم أبناءنا كلما طلبوا
الطعام.. ولا يكفي أن نكسوهم، وأن نؤمن لهم المسكن
الملائم، والترفيه في السفر واللعب والتسوق وما إلى ذلك.
فهم أيضاً بحاجة إلى التغذية الروحية، والتوجيه الأخلاقي،

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٤٢٥.

كما هم بحاجة إلى التغذية العقلية، ليزدادوا قرباً من الله، وليزدادوا معرفةً بدينهم، والهدف من وجودهم في الحياة، وليكون سلوكهم سلوكاً إنسانياً راقياً، وليطوّروا من قدراتهم بدلاً من تحطيمها في الألعاب والأجواء التي تعزلهم وتزرع فيهم العقد، ليعرفوا أن الوقت يعني حياتهم.

وكما قال الإمام الكاظم: (اجتهدوا في أن يكون زمانكم أربع ساعات: ساعة لمناجاة الله، وساعة لأمر المعاش، وساعة لمعاشرة الأخوان الثقة الذين يعرفونكم عيوبكم ويخلصون لكم في الباطن، وساعة تخلون فيها للذاتكم في غير محرّم، وبهذه الساعة تقدرون على الثلاث ساعات)^(١).

أوصوهم أن يقيّموا أنفسهم وسلوكهم.. أوصوهم أن يحاسبوا أنفسهم كما قال الكاظم: (ليس منا من لم يحاسب نفسه في كلّ يوم، فإنّ عمل حسناً استزاد الله، وإن عمل سيئاً استغفر الله منه)^(٢).

يحاسب نفسه وينظر إلى عيوبه وسلبياته، لا إلى سلبيات وعيوب الآخرين لينتقدها ولينتقص من قيمتهم.

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣٢١.

(٢) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ١، ص ٦١٩.

انتقل رجل مع زوجته إلى منزل جديد وفي صبيحة اليوم الأول، وبينما هما يتناولان وجبة الإفطار قالت الزوجة مشيرة من خلف زجاج النافذة المطلة على الحديقة المشتركة بينهما وبين جيرانهما: انظريا عزيزي، إن غسيل جارتنا ليس نظيفاً.. لابد أنها تشتري مسحوقاً رخيصاً. ودأبت الزوجة على إلقاء نفس التعليق في كل مرة ترى جارتها تنشر الغسيل.. وبعد شهر اندهشت الزوجة عندما رأت الغسيل نظيفاً، وقالت لزوجها: انظر.. لقد تعلمتُ أخيراً كيف تغسل! فأجاب الزوج: عزيزتي.. لقد نهضتُ باكراً هذا الصباح ونظفتُ زجاج النافذة التي تنظرين منها!!

نعود إلى وصية الإمام، هل نملك مثل هذه الروحية للعفو والتسامح؟

تكمُن في الإنسان مجموعة من القوى التي أودعها الله سبحانه فيه، فهناك القوة العقلية، ويعبر عنها في بعض كتب الأخلاق عند المسلمين بـ (القوة الناطقة)، ولعلهم أخذوا هذا عن اليونان. هذه القوة من شأنها أن تدرك الحَسَن من القبيح، وتُميز الخير من الشر.. ثم تأمر بفعل الحسن منها وترك القبيح.

وهناك القوة الشهوانية (أو الشهوية): وهي القوة التي يطلب بها الإنسان المنفعة لنفسه، من قبيل المأكل والمشرب والجنس وغير ذلك.

وهناك أيضاً القوة الغضبية: وهي التي يدفع بها الإنسان الأخطار والأذى عن نفسه وعن الأشخاص والأشياء التي تعنيه ويهتم لأمرها.

ومن الواضح أن القوة الشهوية لو أُطلق لها العنان، فإنها ستدفع بصاحبها لتلبية رغباته من دون مراعاة لمعايير معينة كالحلال والحرام، وحُسن الفعل وقبحه. وهكذا فإن القوة الغضبية يمكن توظيفها في الاتجاه الإيجابي دفاعاً عن النفس والمال والعرض والدين والوطن، كما يمكن أن تكون منفلتة يعتدي من خلالها الإنسان على أقرب الناس إليه في لحظة استجابة لها. وإذا وُفق الإنسان ليكون قادراً على السيطرة على قوته الغضبية فقد وُفق لخير عظيم، وقد قال «تعالى»: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ، وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ

عَظِيمٌ»^(١). أي أنه يمتلك حظاً وافراً من الإيمان والوعي والإنسانية النابضة بكل معاني الخير والإحسان.

ونجد في تعاليم الإسلام الشرعية والأخلاقية عدة تدابير تُعين الفرد على ضبط قوته الغضبية، ففي فترة الإحرام مثلاً نجد أن من بين المحرمات: حمل السلاح وإخراج الدم والسب والجدال وقتل هوام الجسد، وكلها تدرب الإنسان على ضبط قوته الغضبية.

وهكذا نجد أن من الغايات الفرعية للصوم ضبط النفس، حيث قال النبي «صلى الله عليه وآله»: (يا أيُّها الناس من حَسَّنَ منكم في هذا الشهر خُلِقَ له جواز على الصراط يوم تزل فيه الأقدام. ومن خَفَّفَ في هذا الشهر عما ملكَت يمينُهُ، خَفَّفَ اللهُ عليه حسابه. ومن كَفَّ فيه شرَّهُ كفَّ اللهُ عنه غضبه يوم يلقاه)^(٢).

ومن هنا اعتبر النبي أن لا قيمة لصيام الإنسان الذي لم يفلح في ضبط قوته الغضبية. ففي كتاب الحسين بن سعيد

(١) سورة فصلت: ٣٤-٣٥.

(٢) الصدوق: الأمالي، ص ١٥٤.

عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» أنه قال: (سمع رسول الله «صلى الله عليه وآله» امرأةً تسابُّ جاريةً لها وهي صائمةٌ، فدعا رسول الله «صلى الله عليه وآله» بطعام فقال لها: كلي. فقالت: أنا صائمةٌ يا رسول الله، فقال: كيف تكونين صائمةً وقد سببت جاريتك؟ إنَّ الصوم ليس من الطعام والشراب، وإنما جعل الله ذلك حجاباً عن سواهما من الفواحش. من الفعل والقول يفطرُ الصائم. ما أقلَّ الصوَّام وأكثرَ الجَوَّاع) (١).

ويأتي هنا دور الفطرة الأخلاقية والعقل والتقوى والقانون والتربية في ردع الإنسان عن توجيه قوته الغضبية في المحل الممنوع. وهو ما نجده ماثلاً في قصة الأخوين هابيل وقايل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ، لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنَّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢). أي قد تكون المسألة أكبر من مجرد كلام وموقف كما في مسألة

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٢٩٣.

(٢) سورة المائدة: ٢٧-٢٨.

المرأة الصائمة، وقد تعامل الإسلام مع ذلك في بُعدين: شرعي قانوني، وأخلاقي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ، ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾^(١).

• القصاص والعفو:

الإسلام شرّع القصاص في القتل العمد، كما شرّع إمكانية العفو بمقابل مادي، أو بلا مقابل، وقد تحدثت الآيتان عن ذلك، ولكن البعض يطرح التساؤل المتضمن لإشكالية وهي أن المسيحية أرقى في هذا الجانب من الإسلام وأكثر إنسانية.. كيف؟

يقولون: المسيحية لا تعترف بالقصاص كمبدأ، بل إنها شرعت بدلاً منه العفو والتسامح، انطلاقاً من قول السيّد المسيح «عليه السلام»: (من ضربك على خدك فأعرض له

(١) سورة النساء: ١٧٨-١٧٩.

الآخر^(١)، وهي بذلك تكون أرقى في تعاليمها من الإسلام.
والجواب في نقاط:

١. التسامح والعفو في المسيحية لم ينطلق ليكون قاعدة وحيدة في التعامل الاجتماعي مع الجريمة والمجرمين، بل انطلق من أجل أن يخفف الجو القانوني المادي الذي سار عليه الناس في ذلك العصر الذي رافق إرسال السيد المسيح. المقاييس الروحية حينئذ لم تكن واردة في حساب العلاقات الخاصة والعامة، كما حدثنا القرآن في أكثر من حديث عن واقع بني إسرائيل، ومن هنا جاءت هذه الدعوة الروحية للسيد المسيح لمواجهة هذه الروحية المادية.

٢. ثم لنلاحظ البيان الذي قدّمه المسيح إلى بني إسرائيل في بداية رسالته: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(٢)، وهو ما يتوافق مع ما جاء في إنجيل (متى): (لَا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لَأَنْقُضَ

(١) الكتاب المقدس: إنجيل لوقا، الأصحاح ٦، الآية ٢٩.

(٢) سورة الصف: ٦.

النَّامُوسَ أَوْ الْأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لَانْقُضَ بَلْ لَأُكْمَلَ^(١).

فالأية القرآنية تؤكد على أن النصرانية لم تأت لتنسخ الخطّ العام الذي ارتكزت عليه شريعة التوراة، بل تحرّكت في اتجاه إقرارها بشكل عام مع بعض الاستثناءات في جانب التحليل والتحريم مما اقتضاه التطوّر الزمني لمواجهة المشاكل المستجدة مما لم يعد التشريع فيه عملياً. وبالتالي لا تختلف المسيحية في هذا عن الإسلام الذي شرّع الحقوق في جميع المجالات الإنسانية للعلاقات العامة والخاصة، ولكنّه قرن ذلك بالدعوة إلى التسامح والعفو والصبر، معتبراً ذلك خيراً وأقرب للتقوى.

بل إن الإسلام تجاوز مسألة الضرب على الخد إلى مسألة القتل، فالقصاص وإن كان مشرّعاً، إلا أن الله يحب أن يأخذ الناس بالعفو بمقابل مالي أو من دون مقابل مالي متى ما كانت الحكمة والمصلحة تدعو إلى ذلك، والقصاص ليس الخيار الوحيد في الأمر، والحكم الشرعي القانوني ليس الموقف الحصري في التعامل في مثل هذه الحالة، بل تؤكد الآية أنه من يعف ويتجاوز، لا يحق له أن يعود في عفوه وإلا

(١) الكتاب المقدس: إنجيل متى، الأصحاح ٥، الآية ١٧.

عوقب على ذلك. وقد مرّت بنا آية ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ والتي تتضمن الدعوة إلى مواجهة الإساءة بالإحسان وليس مجرد إدارة الخد، وهي من دون شك تُمثّل مستوى أرقى من مجرد التجاوز والصّفح، ولكن المشكلة أننا فشلنا في تسويق هذه المفاهيم القرآنية الراقية والتي تمسّ حياتنا بصورة مباشرة وحيوية، وقدّمنا الإسلام وشريعته وكأنهما في حالة شوق وتطلّع للدماء والقصاص وقطع الأيدي وإقامة الحدود.

وكما أن من الخطأ تصوير الإسلام بأنه بعيد عن الحالة الروحية الخلاقية في التعامل مع الإساءة، كذلك من الخطأ القول بأن اليهودية قريبة إلى المادية في التشريع في مقابل اعتبار النصرانية قريبة إلى الروحية في المفهوم، لنخلص من ذلك إلى الحديث عن عظمة الإسلام، لأنه حقّق التوازن التشريعي والمفهومي والعملي بين المادة والروح.

فالقرآن عند الحديث الرسالات السابقة يؤكد أنها تسير في خطّ واحد من ملاحظة مصلحة الإنسان، ومصلحته لا شك ترتبط بالجانبين القانوني والروحي.

• أقصى مراتب العفو:

للإمام زين العابدين «عليه السلام» في الصحيفة السجادية دعاء تحت عنوان: (فِي طَلَبِ الْعَفْوِ وَالرَّحْمَةِ)، وقد استوقفني هذا الدعاء حين قرأته للمرة الأولى حيث شككتُ في فهمي لبعض عبارته، فأعدتُ قراءته مرةً واثنين، حتى تبين لي صحة ما فهمت في البداية، ففيه من صور وروحية العفو عن الآخرين ما يُذهل.

قال «عليه السلام»: (اللَّهُمَّ وَإِنَّمَا عَبْدٌ نَالَ مِنِّي مَا حَظَرْتَ عَلَيْهِ، وَأَنْتَ هَكَذَا مِنِّي مَا حَجَرْتَ عَلَيْهِ، فَمَضَى بِظُلَامَتِي مَيِّتًا، أَوْ حَصَلَتْ لِي قَبْلَهُ حَيًّا، فَاغْفِرْ لَهُ مَا أَلَمَ بِهِ مِنِّي، وَأَعْفُ لَهُ عَمَّا أَذْبَرَ بِهِ عَنِّي، وَلَا تَقْفُهُ عَلَى مَا ارْتَكَبَ فِيَّ، وَلَا تَكْشِفْهُ عَمَّا اكْتَسَبَ بِي. وَاجْعَلْ مَا سَمَحْتُ بِهِ مِنَ الْعَفْوِ عَنْهُمْ، وَتَبَرَّعْتُ بِهِ مِنَ الصَّدَقَةِ عَلَيْهِمْ، أَزْكَى صَدَقَاتِ الْمُتَصَدِّقِينَ، وَأَعْلَى صَلَاتِ الْمُتَقَرِّبِينَ، وَعَوْضَنِي مِنْ عَفْوِي عَنْهُمْ عَفْوُكَ، وَمِنْ دُعَائِي لَهُمْ رَحْمَتَكَ، حَتَّى يَسْعُدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِفَضْلِكَ، وَيَنْجُو كُلُّ مِنَّا بِمَنْكَ). آية عظيمة روحية هذه؟ آية كرامة أخلاقية هذه؟ آية إنسانية سامية هذه؟!

العفو أمر اختياري، فنحن لسنا مرغمين على العفو عن أي شخص ألحق بنا الضرر، ومن جهة أخرى فإن العفو لا يأتي بمحض الصدفة، بل هو ناشئ عن قرار يتخذه الإنسان بإرادته.. فحين يلحق بك أحدهم الأذى فإن الاختيارات أمامك ستكون عديدة:

١ - استمرار الغضب وإفرازاته النفسية السيئة واجترارها التي قد تظهر تبعاتها مباشرة على الصحة الجسدية.

٢ - تحوّل الغضب إلى صور مختلفة من الانتقام.

٣ - كُمُون حالة الغضب في النفس ثم انفجاره في لحظة ما، وتحوّله إلى سلوك عنيف أو قلق أو اكتئاب وما إلى ذلك، فتتقيح جراحات الماضي وتفسد علينا حاضرنّا.

٤ - التعتد من التعامل مع الناس وانعكاس ذلك على السلوك الاجتماعي عند الفرد.

٥ - الشفقة على من أخطأ في حقنا دون ترتيب أي أثر على ذلك.

ولكن عندما تختار بمحض إرادتك أن تعفو عن المخطئ، حين يكون العفو هو القرار السليم (العفو يفسد من اللئيم

بقدر إصلاحه من الكريم.. الإمام علي «عليه السلام» فان هذه الحالة الاختيارية والنابعة عن قصد وارادة وتفكير ذات دلالات وتأثيرات في عدة مستويات:

- ١ - التخلص من الماضي حتى تتفرغ لمعالجة الحاضر.
- ٢ - الراحة النفسية عند الترفع عن الدخول في المهاترات.
- ٣ - تجنب الآثار السلبية العديدة لتفجر الغضب أو احتقانه.
- ٤ - الاحساس بالاقتراب أكثر من الصفات الانسانية والتعاليم الاسلامية وبالتالي من تحقيق رضا الله «سبحانه». (إذا قدرت على عدوك فاجعل الغفو عنه شكراً للقدرة عليه.. الامام علي «عليه السلام»).
- ٥ - إمكانية التأثير في المخطئ كي ينتقل من خانة العداء ان كان ما صدر عنه عن عمد الى خانة الولاء. (تعافوا تسقط الضغائن بينكم.. النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»).
- ٦ - اكتشاف مكان القوة في النفس، لأن الغفو يظهر القوة التي تتمتع بها. (عليكم بالغفو، فإن الغفو لا يزيد العبد

إلا عزاً، فتعافوا يعزكم الله.. النبي «صلى الله عليه وآله»).

٧ - مساعدة الآخرين على اتخاذ ذات القرار العفو من خلال النموذج العملي الذي تقدمه لهم، لتؤكد لهم ان العفو ممكن وفي متناول اليد.. تماماً كما ان الانتقام ممكن.. وكما ان اجترار الآلام ممكن.. ولكن الفرق بينهما كالفرق بين الثريا والثرى. (قلة العفو أقبح العيوب، والتسرع الى الانتقام أعظم الذنوب.. الإمام علي «عليه السلام»).

٨ - توقع الثواب والرحمة الالهية الدنيوية والأخروية. (إذا عنت لكم غصبة فادرؤوها بالعفو، انه ينادي مناد يوم القيامة: من كان له على الله أجر فليقم، فلا يقوم الا العافون، ألم تسمعوا قوله «تعالى»: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(١).. من كثر عفوهُ مد في عمره.. عفو الملوك بقاء المُلك.. تجاوزوا عن عثرات الخاطئين يقيكم الله بذلك سوء الأقدار.. النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»).



عقلية المغالبة

قال الله «عز وجل»: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾^(١)، هذه الآية الشريفة وإن جاءت في أجواء العلاقة الزوجية، ولكن يمكن اعتبارها قاعدة من القواعد، أو معادلة من المعادلات الإلهية المرتبطة بعلاقات الناس ببعضهم البعض في أجواء الخصومة والنزاعات... وهي من جزئين: الجزء الأول، الشرط، وهو يتمثل في توفر الإرادة الحقيقية لدى طرفي الخصومة والنزاع في إنهائه، والبحث الجاد عن الحلول والتسويات.

والجزء الثاني، النتيجة، وهي تتمثل في التدخل الغيبي

(١) سورة النساء: ٣٥.

من عند الله «سبحانه» في إنجاح هذا المسعى وترسيخه ورفع المعوّقات من أمامه.

في كثير من الحالات، عندما تقع الخصومة والنزاع، سواء في المسائل الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو غيرها، وتبدأ مساعي الإصلاح، نجد أن عقلية المغالبة تكون حاضرة بقوة.

عقلية المغالبة^(١) تعني أن الطرفين أو أحدهما لا يستبطن الرغبة الحقيقية في المصالحة بقدر ما يريد تسجيل نقطة على الطرف الآخر، أو الظهور بمظهر المنتصر في الصراع، أو الطرف الأقوى... وهنا تكمن المشكلة الكبرى المضادة للمعادلة الإلهية التي ذكرتها الآية. ولذا لا يُتوقع أن تترتب النتيجة ما دام الشرط غير متحقق.. وهو الإرادة الحقيقية في الإصلاح، وهذه الإرادة الحقيقية تتطلب توفير الأرضية المناسبة لفتح باب النقاش والحوار ومحاولة التوصل إلى حلٍّ يرتبط بالقضية وبعيداً عن بعض التفاصيل والمواقف السابقة التي يمكنها أن تعقّد المسألة وتعطلّ الحل أو تؤخّره.

(١) بعض التفاصيل الآتية لم تأت في الخطبة، بل أضيفت للكتاب.

• الشك في طريق اليقين:

ولذا نجد أن الله «سبحانه» يوجّه نبيه إلى فتح المجال لبحث المسائل الخلافية مع المشركين على أساس فرضية احتمال الخطأ عند أحد الطرفين والدخول في حوار دون حتميات مسبقة، فهو يمتلك روحية الباحث عن الحق، ويطرح المسألة في ساحة الشك، كما لو لم يكن يمتلك القناعة واليقين، وأنه يريد التمييز بين عن موقع الخطأ من موقع الصواب الذي يلتزمه، أو يلتزمه الآخرون، وفق منهجية (الشك في طريق اليقين)، بحيث يتم تفريغ الموقف من أية أفكار مسبقة تفرض نفسها ويمكنها أن تتحوّل إلى عقدة أو حاجز يمنع أو يقيّد الطرفين من الشعور بحرية اتخاذ القرار أو إصدار الحكم أو تقييم الأمر: ﴿وَأَنَا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١)، وهذا في حدّ ذاته يمثل القمّة في الموضوعية.

وإذا كان الأمر بهذه الصورة في قضية تمثّل أساس كل القضايا الإيمانية والشرعية، وهي قضية التوحيد، فكيف

بقضية خلاف ذي طابع اجتماعي يرتبط بزوجين يُحتمل أن يكون كلاهما - بصورة أو بأخرى - مخطئين؟!

وإذا كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» قد أمر أو وُجّه من قبل الله «سبحانه» أن لا يُعطي لنفسه صفة الهدى في أجواء مثل هذه الحوارات، وأن لا يدمغ خصمه بصفة الضلال، مع إيمانه العميق بأنه على حق، وما ذاك إلا ليتترك الحوار يأخذ مجراه دون تعقيد وصولاً إلى النتيجة الحاسمة، فكيف بغير رسول الله وفي قضية ليست كقضية الإيمان بوحداية الخالق «سبحانه»؟

إن هذه المنهجية في الحوار تعتبر أرقى مرتبة وأكثر تقدماً من منهجية (رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأيي غيري خطأ يحتمل الصواب)، لأنه يعني (رأيي ورأيي غيري يحتمل الخطأ والصواب في درجة واحدة)، ولو اعتمد ذلك فإنه سيجرّد الموقف من أيّة حساسيات إيحائية في النظرة إلى الذات وإلى الآخرين.

• الأرضية المشتركة :

وهكذا نجد في موقع آخر من القرآن الكريم بياناً

لأهمية وضع الأرضية التوافقية الصلبة التي يمكن الاتكاء عليها والانطلاق من خلالها بحثاً عن الحلول والوصول إلى نتائج سليمة فيما يخص الخلاف مع أهل الكتاب، حيث قال «سبحانه»: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾^(١).

واعتماد الزوجين في خلافتهما مثل هذه الأرضية عند الانطلاق في بحث المشاكل ومواطن الخصومة والنزاع فيما بينهما كفيل بأن يساعد كثيراً في الوصول إلى حلول عملية واقعية تساعد على الخروج من المأزق القائم، أو التوافق على حل عملي يصب في صالح الطرفين، بل وحتى لصالح الأبناء - في حال وجودهم - وأسرتي الزوجين أيضاً.

أما منطق أصحاب عقلية المغالبة فيخالف المنطق الإلهي إذ يقول «سبحانه»: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾^(٢)... فالصلح - ما أمكن - أفضل على طول الخط،

(١) سورة آل عمران: ٦٤.

(٢) سورة النساء: ١٢٨.

إلا أن سعي الإنسان لأن يحفظ مصالحه ومنافعه جزء من الغريزة البشرية القوية عنده، وهذا معنى ﴿وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشَّحَّ﴾، وهذا أمر حيوي وضروري لبقاء الإنسان، ولكن توظيفه في المكان الخطأ سيؤدي إلى ما يخالف مصلحته. فهذه العبارة بمثابة تنبيه إلهي ليتذكر طرفا الخصومة والنزاع وجود غريزة داخلية قوية ومستحكمة تدفع كلاً منهما للاستجابة لعقلية المغالبة كي يحفظ كل منهما مصالحه، ولكن الحياة والتفاعل مع الآخرين تستدعي ضبط هذه القوة الغرائزية والسيطرة عليها وتحييدها متى ما تطلب الأمر ذلك.

ولذا المطلوب قبل عقد مثل هذه الجلسة أن يراجع كل منهما نفسه ليتأكد من أنه يمتلك الإرادة الحقيقية لإنهاء الخصومة، لا أنه يدخلها بعقلية من يريد التغلب بالنقاط أو بالضربة القاضية.

وخلاصة الكلام أنه متى ما اجتمع الزوج وزوجته في مجلس للصالح، وكانت عقلية المغالبة هي السائدة أو حاضرة عند أحدهما، فمن الصعب الوصول إلى إصلاح وحل للنزاع القائم بينهما.



نشوز الزوجين

أفاض الله «سبحانه» على العلاقة الزوجية المودة والرحمة والسكينة، وزيّنها بآداب المعاشرة وأخلاقيات الحياة المشتركة كالتعامل بالمعروف، كما شرّع لها من الأحكام ما يحفظ لكل زوج وزوجة حقوقهما.

وجود التشريعات الخاصة بحقوق الزوجين لا يعني أن يحوّل الزوجان العلاقة الزوجية إلى حالة شبيهة بالحركة الميكانيكية، هذه حقوقك، وهذه حقوقي، لا أكثر ولا أقل. ولذا على الطرفين أن يلتفتا إلى أن:

١. الحقوق والواجبات المذكورة في الكتب الفقهية تمثل الحد الأدنى في العلاقة بين الطرفين.

٢. الله لا يريد لهذه العلاقة المقدسة أن تكون في حدودها الدنيا، بل أراد لها أن تكون علاقة تمازج روحي، يشعر من خلالها الزوج أن زوجته جزءٌ من كينونته وكرامته، وتشعر معها الزوجة أن زوجها جزءٌ من كينونتها وكرامتها، ومن خلال ذلك يعملان على بناء حياة مشتركة ملؤها المودة والرحمة والسكينة، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾^(١).

٣. هناك الآداب والأخلاقيات الخاصة بالحياة المشتركة بينهما، ولا يمكن بناء حياة زوجية سليمة من دونها... الحياة الزوجية تصبح جسداً بلا روح إذا اكتفينا بمجموعة الحقوق والواجبات فقط.

ومع أن من المفترض أن تتحقق حالة الارتياح والطمأنينة والانشداد النفسي المتبادل بين الطرفين كما عبّرت الآية: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾، إلا أن صوراً من الخلافات والنزاعات والمشادات والتخاصم قد تقع بين الطرفين.

من نماذج ذلك ما جاء في سورة المجادلة. قال «تعالى»:

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(١).

هذه الزوجة المسكينة وصل بها الحال أن لا تجد طريقة لحل مشكلتها إلا بأن تشتكي إلى الله، واضطرت للجوء للنبي «صلى الله عليه وآله» لعله ينصفها من زوجها الذي ظلمها بقراره وتصرفاته.

هذه واحدة من صور المشكلات الزوجية التي تمت معالجتها في القرآن من خلال:

١. التشريع.

٢. التوصيات الأخلاقية

٣. الدعوة إلى التحلي بالحكمة والتقوى

٤. تحريك المشاعر الإيجابية بين الزوجين.

• النشوز كسبب للخلاف:

ومن الخلافات ما قد يكون سببها وقوع النشوز... أو تتطور لتتحول إلى نشوز... بالطبع فإن المتبادر إلى الأذهان

(١) سورة المجادلة: ١.

عند ذكر هذه الكلمة أن النشوز تصرّف سلبى صادر من الزوجة تجاه زوجها فيما له علاقة بحقوقه الزوجية، والحال أن القرآن الكريم ذكر في سورة النساء حالتى نشوز الزوجة وكذلك الزوج... ففي الآية ٣٤ من السورة قال: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ وفي الآية ١٢٨ قال: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾. أي أن النشوز قد يحدث من أي طرف منهما.

في اللغة كلمة نشز تعني: (خرَجَ عن المعتاد) ولذا يقال: (أَرْضٌ نَشَزَتْ) أي بها نتوء وارتفاع، لخروجها عن طبيعة الأرض من حولها. ونقول (صوت ناشاز) للصوت الخارج عن المألوف... فإذاً عندما نتحدث عن النشوز في إطار العلاقة الزوجية فهذا يعني أن هناك خروجاً عن المعتاد والوضع الطبيعي في العلاقة بين الزوجين.

ليس بالضرورة أن يتمتع الزوج عن كل حقوق الزوجة حتى يعتبر ناشزاً، وكذلك الزوجة. فالزوج الذي لا يفي -مثلاً- بحق زوجته في الفراش، بلا عذر كالمرض والسفر، يعد ناشزاً، وإن أنفق عليها.. كما أن الزوجة تعتبر ناشزاً عندما تمنعه ذلك بلا عذر... وفي الحالتين لابد من معالجة

وفق خطوات، وأهم خطوة هنا أن نعرف السبب وراء هذا النشوز ونعالج هذا الخلل.

المسألة ليست مسألة قوانين وأوامر.. بل أن نحاول إعادة العلاقة إلى الوضع الطبيعي كما ينبغي أن تكون عليه. أما في حالة الفشل أو عدم وجود من يستطيع القيام بهذا الدور، فننتقل إلى آليات التعامل الفقهي.

• نشوز الزوج:

ولنبداً مع نشوز الزوج... ما هي التوجيهات القرآنية لمعالجة هذا النشوز؟

﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(١)... ومن هنا قالوا أنه في حالة نشوز الزوج:

١) تسلك الزوجة سبيل الأخلاق الفاضلة صبراً ومداواة وتودداً، لعلها تستطيع أن تكسب قلبه.

عن إسحاق الجعفي قال: (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله دخل بيت أم سلمة فشتم ريحاً طيبة فقال: أتتكم الحولاء^(١)؟ فقالت: هو ذا هي تشكو زوجها، فخرَجَتْ عليه الحولاء، فقالت: بأبي أنت وأمي، إن زوجي عني معرض، فقال: زيديه يا حولاء، قالت: ما أترك شيئاً طيباً مما أتطيب له به، وهو عني معرض. فقال: أما لو يدري ما له بإقباله عليك؟...)^(٢).

وقد تعجّب إسحاق بن عمار من ترتب الثواب على ذلك، فكان في ضمن تساؤله للإمام الصادق عليه السلام أن قال: (قلت: فإنه يروى عن النبي صلى الله عليه وآله أن أبا ذر «رحمه الله» سأله عن هذا فقال: اتت أهلك توجر، فقال: يا رسول الله آتيهم وأوجر؟ فقال رسول الله صلى

(١) يبدو من خلال عدة نصوص أن إطلاق الألقاب على الأفراد وفقاً لمظاهرهم الخارجية أو بعض صفاتهم الجسدية كان أمراً طبيعياً ولا يراد به الإهانة، وذلك من قبيل إطلاق لقب الأفطح على عبدالله ابن الإمام الصادق، والأشتر على مالك النخعي صاحب الإمام علي، والأعرج على مسلم بن كثير الأزدي الشهيد بكربلاء، والأعمش على المحدث سليمان بن مهران، وغير ذلك. وقد استمر هذا الأمر إلى زمن قريب في مجتمعنا، إذ نجد أن ألقاب بعض الأسر الكريمة تقوم على هذا الأساس.

(٢) سورة النساء: ١٢٨.

اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلَهُ:» كما أنك إذا أتيت الحرام أُزِرت، فكذلك إذا أتيت الحلال أوجرت، فقال أبو عبد الله «عليه السلام»: ألا ترى أنه إذا خاف على نفسه فأتى الحلال أوجر؟^(١).
فالمسألة -بحسب الرواية- أن الثواب مترتب بلحاظ حفظ نفسه وزوجته عن الوقوع في الحرام.

وعلى كل حال، فإنَّ العفو والتسامح من أنجع أساليب إصلاح ذات البين، حتى لو لم يكن المتسامح مخطئاً من الأساس. قال «تعالى» وهو خالق النفوس البشرية والأعلم بما يصلحها: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٢).

٢) نشوز الزوج معصية، ولذا فعليها أن تنهاه عن المنكر وتأمره بالمعروف بالأسلوب الأنسب.

٣) ترفع أمرها للحاكم الشرعي وتشكوه له، وعلى الحاكم أن يتخذ الإجراءات وفق الترتيب التالي:

أ. استدعاء الزوج ويأمره بأن يؤدي للزوجة حقها.

(١) الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٤٩٦.

(٢) سورة فصلت: ٣٤.

ب. إن لم يمتثل، فالزوجة بين أمرين، إما الصبر بأن تتصالح معه على ذلك، وإما طلب الطلاق.

٣. إن طلبت الطلاق، وطلقها، كان خيراً، وإلا أجبره الحاكم، فإن أبى، طلقها الحاكم.

ولو افترضنا أن الزوج كان يؤدي زوجته ضرباً وشتماً، وتحاول أن تراضيه بإعطائه من مالها كي يكف عن ذلك، حَرَّم عليه أخذه، ويجوز لها أن تشكوه للحاكم الشرعي ليأمره بحسن المعاشرة، فإن لم يرتدع يوقع عليه عقوبات تحت عنوان (التعزير) كالحبس مثلاً.

عن النبي «صلى الله عليه وآله»: (ومن أضرَّ بامرأة حتى تفقد منه نفسها، لم يرض الله له بعقوبة دون النار، لأن الله يغضبُ للمرأة كما يغضب لليتيم)^(١).

وعنه «صلى الله عليه وآله»: (أخبرني أخي جبرئيل ولم يزل يوصيني بالنساء حتى ظننت أن لا يحل لزوجها أن يقول لها أف!... أخذتموهن على أمانات الله)^(٢).

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٢، ص ٢٨٣.

(٢) البروجردي: جامع أحاديث الشيعة، ج ٢٠، ص ٢٤٨.

قد يقال: المحاكم مليئة بالقضايا، وتأخذ سنوات في الأروقة، ومن غير المعلوم كيف سيحكم القاضي، ثم إذا حكم لصالح الزوجة واقتنع، قيل لها حكمه باطل لأنه حاكم غير شرعي... هذا الكلام سليم، ولذا يمكن للزوجة أن تشتترط في عقد زواجها أن يعطي الزوج وكالة لأبيها مثلاً أو لأخيها أو حتى لنفسها بأن يطلقها في الحالات التي يصح فيها طلاق الحاكم الشرعي، أو بعبارة أخرى طلاق الضرر.

• نشوز الزوجة :

أما في حالة نشوز الزوجة فتتمثل لنا الآية التالية حيث قال «تعالى»: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾^(١). وبيان ذلك كالتالي:

(١) يسلك سبيل الأخلاق الفاضلة صبراً ومدارة وتودداً لعله يستطيع أن يكسب قلبها ويعالج تمردها.

وما ذكرناه بخصوص العفو والتسامح عند نشوز الزوج يجري هنا أيضاً، وليعلم الرجل أن تسامحه وعفوه لن يُنقص

من هيبتة ورجولته شيئاً، بل هو رفعة له، وقد روي عن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» قوله: (إن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، فاعفوا بعزكم الله) (١).

لا أنكر أن التماذي في التسامح يكون في بعض الحالات تشجيعاً على التمرد، ولكن لا بد من تقييم الأمر بحسب المعطيات، والعمل وفقها بصدق وإنصاف.

٢) نشوز الزوجة معصية، ولذا فعليه أن ينهاها عن المنكر ويأمرها بالمعروف بالأسلوب الأنسب، ولو بالاستعانة بالغير ممن يملك المعرفة الشرعية والأسلوب الأنسب.

٣) في حالة اليأس مما سبق فيمكنه أن يهجرها، بأن ينام في غرفة مختلفة، أو يدير لها ظهره فلا يعبأ بها، كنوع من الضغط النفسي لردع تمرداها.

٤) اللجوء إلى الضرب كما جاء في الآية القرآنية، وهو خيار غير لازم، بل إن شاء لجأ إليه، وإن شاء عزف عنه. وقد اشترط بعض الفقهاء أنه إذا أراد اللجوء إليه فيجب

عليه أن يراعي أمور:

أ. أن يكون ذلك بعد الخطوات السابقة وظهور إصرارها على التمرد.

ب. أن يأمل تأثرها بهذا الضرب، وإلا لم يجز ضربها.

ج. أن يكون ضربها بقصد إصلاحها لا بقصد التشفي والانتقام.

د. الاقتصار على أقل مقدار من الضرب يحتمل معه التأثير، وحدّه الأعلى أن يكون غير موجب لاحمرار الجلد واسوداده. ولو زاد فاحمر الجلد أو اسود أثم وضمن الدية. وعن الباقر «عليه السلام»: (أنه الضرب بالسواك)^(١). أي بحيث يكون تأثيره تأثير الضرب بالسواك حيث لا يترك أثراً جسدياً، ولا يكون موجعاً، بل الغرض منه التعنيف للردع.

وأما من يحوّل الحكم في الآية إلى مبرر للضرب بما يتجاوز الحد، أو بغير نشوز وفق الخطوات التي ذكرناها، فليستمع إلى هذه النصوص:

روي عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (أيّ

(١) الطبرسي: مجمع البيان، ج ٢، ص ٤٤.

رجل لطم امرأته لطمه أمر الله «عز وجل» مالكاً خازن النيران فيلطمه على حر وجهه سبعين لطمه في نار جهنم^(١).

وعنه «صلى الله عليه وآله»: (إني أتعجب ممن يضرب امرأته وهو بالضرب أولى منها، لا تضربوا نساءكم بالخشب فإن فيه القصاص)^(٢).

٥) منعها من النفقة بسبب النشوز.

وعموماً، تعدّي الإنسان على الآخر عند الخصومة بالضرب وما شابه ليس أمراً مشروعاً، وتترتب الدية أو العقوبة حتى على الجرح أو الأثر البسيط الذي يتركه ذلك التعدّي الجسدي، وكله مقدّر في الشريعة ويجب دفعه للمعتدى عليه.

عن الحلبي، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (إن أعتى الناس على الله «عز وجل» من قتل غير قاتله، ومن ضرب من لم يضربه)^(٣).

(١) النوري: مستدرک الوسائل، ج ١٤، ص ٢٥٠.

(٢) البروجردی: جامع أحاديث الشيعة، ج ٢٠، ص ٢٤٨.

(٣) البروجردی: جامع أحاديث الشيعة، ج ٢٠، ص ٢٤٨.



فراقك عيد

عندما تطفو على السطح مجموعة من المشكلات بين الزوجين، وقد تكون تافهة وممكنة الحل بسهولة من خلال التوصل إلى بعض التفاهات، تظهر حينها صور من التعسف والتمنع والمكابرة والتضخيم من قبل الطرفين أو أحدهما، بما يتطابق مع المثل الدارج (صنع - سوّى - من الحبّة قبة)!

وقد تتجرّ الأمور إلى أن تطلب الزوجة أن يعيدها زوجها إلى بيت أبيها، ولربما قامت بنفسها بأخذ بعض حاجياتها وغادرت راجعةً إلى قواعدها (سالمة).

بالطبع، هذا لا ينطبق على الجميع، فهناك نسبة ملحوظة

من الزوجات يصبرن ويتحملن ويسوّفن ولا يكشفن لأهلهن طبيعة المشكلات اللاتي يعانين منها، ولربما يتجاوز بذلك الحد المعقول إلى أن تتفاقم المشكلة وتتحول إلى معضلة غير قابلة للحل، أو يتعرضن إلى اضطهاد بشع، ضرباً وشتماً وإهانة وإرعاباً وهضماً للحقوق... ومع هذا يفضلن السكوت والصبر، فهذا أفضل بالنسبة إليهن من الطلاق.

إلا أن في المقابل هناك نسبة أخرى ملحوظة من الزوجات الشابات يسارعن إلى تضخيم الأمور وتحويل أية مشكلة إلى سبب لترك بيت الزوجية والمطالبة بالطلاق.

والنموذج القرآني الآتي يقدم صورة الزوجة الحكيمة التي حرصت على المحافظة على بيت الزوجية - ما أمكن - على الرغم من تعرضها للظلم، حتى نزلت فيها آيات خلّدت قصّتها وصاحبته أحكام تشريعية تعالج وضعها والأوضاع المشابهة لها في المستقبل.

قال «تعالى»: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾^(١).

في الطبقات الكبرى لابن سعد عن عمران بن أبي أنس أنه قال: (كان من ظاهر في الجاهلية) أي قال لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي (حرمت عليه امرأته آخر الدهر) وفي بعض الكلمات أنها تبقى زوجته ولا يحق لها الزواج من غيره وبالتالي تكون معلقة (فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس بن صامت، وكان به لَمَم) نوع من الجنون ويبدو أنه كان إدوارياً غير مستمر (وكان يفيق فيعقل بعض العقل. فلاحى) كثر كلامه في الباطل (امراته خولة بنت ثعلبة أخت أبي عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة في بعض صحواته فقال: أنت عليّ كظهر أمي. ثم ندم على ما قال. فقال لامراته: ما أراك إلا قد حرمت عليّ. قالت: ما ذكرت طلاقاً، وإنما كان هذا التحريم فينا قبل أن يبعث الله رسوله. فأت رسول الله فسأله عما صنعت. فقال: إني لأستحيي منه أن أسأله عن هذا فأتي أنت رسول الله «صلى الله عليه وآله» عسى أن تكسبنا منه خيراً تفرجين به عنا ما نحن فيه مما هو أعلم به. فلبست ثياباً ثم خرجت حتى دخلت عليه في بيت عائشة فقالت: يا رسول الله، إن أوساً من قد عرفت، أبو ولدي وابن عمي وأحب الناس إليّ، وقد عرفت ما يُصيبه من اللمم وعجز

مقدرته وُضعف قوته وعي لسانه...) إلى أن قالت: (وقد قال كلمةً، والذي أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقاً، قال: أنت علي كظهر أمي)^(١).

قبل أن نُكمل الرواية، نتوقف قليلاً لنسجل ملاحظة مهمة وحساسة... لقد قامت هذه الزوجة الحكيمة بترتيب وتنسيق الكلام من أجل أن تجد لنفسها مخرجاً وتعيد الحياة الزوجية إلى وضعها الطبيعي.. ومع من؟ مع رجل قد فقد عقله نسبياً.. مع رجل أهانها بقوله هذا.. وفي رواية أخرى أنه قد كبر سنُه وساء خلقُه، بل ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يسيء فيها إليها.

ولو جرى ما جرى في مجتمعاتنا في هذا الزمن لربما قالت: (فراقك عيد... دَفعة مردي والهوا شَرَجِي)!

والمُرَدِّي لغة: خشبةٌ طويلة يُنَحِّي بها الملاحُ السفينةَ عن الأرض أو يدفعها بها. والجمع: مَرَادِيّ. والمعنى أن المردي إذا ما استخدمه الملاح حين يكون اتجاه الهواء شرقياً ساعده ذلك في سرعة تحرك السفينة. ويضرب في الفرح

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ٨، ص ٣٧٩.

بسرعة التخلّص من الشخص غير المرغوب فيه.

ولكن هذه السيدة كانت حريصة على بيت الزوجية واستمرار هذه العلاقة على ما فيها من علّات وصعوبات.. هذه العلاقة التي عبّر عنها القرآن بالميثاق الغليظ!

أما اليوم -وللأسف- يتم تفكيك هذه العلاقة، وبكل سهولة ولأتفه الأسباب إذ ما عاد مفهوم الميثاق الغليظ حاضراً في أذهان الطرفين.. الميثاق الغليظ يعني التزام الرجل بمسؤوليات الحياة الزوجية.

• تبعات الميثاق الغليظ :

عندما يتزوج الشاب عليه أن يُعيد برمجة يومه ووقته.. اهتماماته.. علاقاته.. أسلوبه في الإنفاق.. ما عاد هذا الشاب يتحمّل مسؤوليته الشخصية فقط.. هناك زوجة.. وغداً هناك أبناء.. عليه أن يتعلم الاقتصاد الأسري: الموازنة بين الدخل.. والإنفاق.. والادخار.

يقول الله «تعالى»: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾^(١)، فالجانب

الاقتصادي في إدارة الأسرة أمر مهم جداً، وتصل أهميته إلى درجة أنه يهدّد استمرارية هذه الوحدة الاجتماعية في ما لو افتقد الطرفان الرئيسان -الزوج والزوجة- أو أحدهما القدرة على إدارة هذا الأمر، والحكمة في التخطيط والتنفيذ المتعلق بالإيرادات والإنفاقات والادّخار للظروف المفاجئة.

الجيل الشاب اليوم هو ضحية مفاهيم خاطئة ومؤثرات مختلفة أحاطت به، فرسّخت فيه الأنا بقوة، وانتزعت منه صفات عديدة كالإيثار وروحية العطاء والتضحية من أجل الآخر، وهو ما انعكس على أمور عديدة من بينها تعرّض الكثير من حالات الزواج إلى الفشل.

ومن بين أهم أسباب هذا الفشل هو تقديم الزوج أو الزوجة لرغابتهم الذاتية ذات الطابع المادي على الأولويات، لتعاني الأسرة خلال الشهر من الناحية الاقتصادية، أو لتتفاعل مسألة الإنفاق وكيفية إدارة هذا الملف من وقت لآخر إلى المستوى الذي قد يؤدي إلى الطلاق... ولذا نجد الشاب لا يستطيع بعد الزواج أن يفكّ نفسه عن أسلوب الحياة الفردية

الشخصية التي كان يعيشها قبل ذلك في طريقة الإنفاق على نفسه وأسفاره وصداقاته، ليجد في نهاية المطاف أنه غير قادر على تلبية احتياجات أسرته الضرورية.

وفي المقابل قد تتأمل الفتاة من الزواج أن يكون فرصة لتحقيق أحلامها بالحصول على أعلى المقتنيات والكماليات ومنافسة معارفها، والتباهي بأسفارها وملبسها ومسكنها وسيارتها، بل وحتى ملبس طفلها الرضيع وغيرها من أمور هي في الأساس متطلبات للعيش الكريم، ولكنها تتحول إلى مادة للتباهي والتنافس... والنتيجة في نهاية المطاف هي النزاع، ومن ثم تهديد الحياة الزوجية بالفشل والطلاق وما يترتب على كل ذلك من سلبيات ومشكلات وصور متعددة للخصومة والانتقام والتشفي وما إلى ذلك.

والواقع أن حُسن التقدير في المعيشة من صفات الإنسان العاقل الحكيم، وفي الخبر عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» أنه قال: (إنه لا يُصلح المرء المسلم إلا ثلاثة: التفقه في الدين، والصبر على النائبة، وحُسن التقدير في المعيشة)^(١).

(١) الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٨٧.

وعنه «عليه السلام»: (إذا أراد الله «عز وجل» بأهل بيت خيراً رزقهم الرفق في المعيشة) (١).

وعنه «عليه السلام»: (عليك بإصلاح المال فإن فيه منبهةً للكريم) أي رفعة لشأنه (واستغناءً عن اللئيم) (٢).

وأخيراً عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»: (رحم الله عبداً أحسنَ فيما بينه وبينَ زوجته، فإنَّ الله «عزَّ وجلَّ» قد ملَّكه ناصيتها، وجعله القيمَ عليها) (٣).

وعندما تتزوج الشابة عليها أن تدرك أنها دخلت عالماً جديداً.. ولن تجد هذا الإنسان الذي ارتبطت به بهذا الميثاق الغليظ متطابقاً مع شخصيتها وأطباعها.. فكل إنسان خصوصياته. قد لا يكون هذا الزوج في أكثر الأحيان فارسَ الأحلام الذي رسمته في مخيلتها.. تلك أحلام.. وهذا واقع.. ذاك عالم ديزني وهوليوود.. وهذا عالم الحقيقة.. وعليها أن تقبل بهذا الواقع وتُحسن التعامل معه.

(١) الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٨٨.

(٢) الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٨٨.

(٣) الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٤٤٣.

عليها أن تعي أنه عندما تقع المشكلة... أو عندما يُخطيء هذا الزوج بحقّها، فإن هذا ليس هذا نهاية المطاف.. ليس هذا المسمار الأخير في نعش حياتها الزوجية.. بل عليهما أن يتعاونوا -وبكل وسيلة ممكنة - للبحث عن مخرج من أزمتهم.. تماماً كما فعلت خولة وزوجّها.

بالطبع، فإنّ بعض الآباء والأمهات قد لا يشعرون بالارتياح تجاه هذا الطرح. الأب والأم في مثل هذه المواقف يريدان الانتصار لابنتهما.. تربّت في عزّ ودلال، والآن جاء هذا (النكرة) ليؤذيها؟ (الطلاق أبرك^(١) ألف مرة من هكذا زواج)! ولكن قبل الاستعجال بإطلاق هكذا تصريحات عليهما أن يتذكّرا أن هذا اختيارهم جميعاً، أو ما وافقوا عليه على الأقل.. وعليهم أن يتحمّلوا مسؤولية ذلك، من خلال مساعدة الطرفين على تجاوز الأزمات، وإصلاح ذات البين، وبالتوجيه والنصيحة.

• نزول الحكم:

نعود مجدداً إلى الرواية: (فقال رسول الله: ما أراك إلا

(١) أي أفضل وأكثر بركة.

قد حُرِّمَتْ عليه) ومع هذا لم تيأس (فجَادَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ مراراً ثم قالت: اللهم إني أشكو إليك شدةَ وَجْدِي، وما شَقَّ عَلَيَّ مِنْ فِرَاقِهِ، اللهم أَنْزِلْ عَلَيَّ لِسَانَ نَبِيِّكَ ما يكون لنا فيه فرج. قالت عائشة: فلقد بكيتُ وبكى مَنْ كان معنا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ، رَحْمَةً لَهَا، وَرِقَّةً عَلَيْهَا....). وتكمل الرواية كيف نزل الوحي على النبي «صلى الله عليه وآله» في تلك اللحظات، رحمةً بهذه السيدة التي احترق قلبُها أَلَمًا، والصادقة في البحث عن حلٍّ يُخرجها من الورطة التي أوقعها فيها زوجها، ومن أجل تقديم حكم شرعي لمثل هذه الحالات، فقال «تعالى»: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِّن نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾^(١).. ثم نزلت الآيات لتبيِّن المعالجة الشرعية لما جرى من خلال التكفير بعقوبة، فإن لم يمكن فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يمكن فإطعام ستين مسكيناً.

وخلاصة الكلام أن العلاقة الزوجية تمثل الميثاق الغليظ الذي يربط بين شخصين.. ومن هنا فإنَّ المسؤولية

تُحْتَمُّ عليهما أن يبذلا قصارى جهدهما للخروج من الأزمات التي قد تعصف بهذه الحياة المشتركة وليتجنبا العزة الكاذبة التي تدفع صاحبها إلى المكابرة، ورفض الحلول، ورفع سقف المطالبات، فقد يفلت زمام الأمور من الطرفين، ويفرط العقد، ليجدا نفسيهما أمام واقع مرٍّ، ومعاناة نفسية وجسدية ومالية، كان بإمكانهما تجنبها بقليلٍ من الحكمة والتصبر والتعالي على الجراح.



طَلَّقْتَكَ نَفْسِي

عن الإمام الباقر «عليه السلام»: (إن الله «عزَّ وجلَّ» يُبْعِضُ كُلَّ مِطْلَاقٍ ذَوَّاقٍ)^(١) أي كثير التطبيق وبلا مبرر، بل على أساس المزاج الشخصي والرغبة في التغيير، وكأنه يتعامل مع سيارة من مقتنياته، بمجرد أن يملَّ منها بعد استعمال سنة أو سنتين يتوجَّه إلى الوكيل لاقتناء سيارة أخرى جديدة أو مستعملة.

عقد الزواج مبني في الشريعة الإسلامية على إيجاب من المرأة وقبول من الرجل، فهي التي تُقدِّم ويصدر عنها التزويج حيث تقول: (زَوَّجْتُكَ نَفْسِي....) أو تُعْطِي

(١) الكليني: الكافي، ج ٦، ص ٥٥.

وكالة لشخص ما قد يكون الأب أو غيره ليقوم بهذا الدور فيقول: (زوجتك موكلّتي)، بينما يقوم الرجل بالقبول تعبيراً عن رضاه وقبوله بما عُرض عليه فيقول: (قبلت التزويج.....)، أو يُعطي وكالة لمن يقوم بذلك.

• صلاحية الطلاق:

لابدّ أن تلتفت المرأة قبل أن تُقدم على هذا الأمر أنها تُضمّن عرض التزويج هذا صلاحيةً لذلك الرجل المتوقع أن يُعلن قبوله التزويج، فإذا قبل امتلك تلك الصلاحية المُعطاة من قبلها وباختيارها. هذه الصلاحية هي صلاحية (الطلاق) متى شاء، ولو من دون سبب.. وكذلك صلاحية عدم الطلاق واستمرار حالة الزوجية، ولو شاءت هي إنهاء الحالة الزوجية وأصرّت عليه.. بل وحتى لو صدر عن الزوج ما قد يستدعي إنهاء العلاقة بينهما فإنه يبقى - مبدئياً - صاحب القرار في ذلك. فلو لم يُنفق عليها، أو كان يُلحق بها الأذى، أو يتعسّف في معاملتها، فسيبقى - مبدئياً - حق الطلاق بيده، وذلك بمؤدّي مضمون عقد الزواج الذي تمّ بينهما وبإرادتها الكاملة.

• توجيهات أخلاقية :

طبعاً هناك توجيهات أخلاقية، وتحذيرات، بل وتهديدات
ضمنية في القرآن الكريم وفي الأحاديث الشريفة بعدم
إساءة الرجل استغلال هذه الصلاحية، لأن الله بالمرصاد
وهو بكل شيء عليم، ولا يرضى بالظلم، ويعاقب عليه، إن
عاجلاً وإن آجلاً. مثال ذلك ما جاء في قوله «عز وجل»:
﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾^(١)،
وقوله «عز وجل»: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنِ أَجَلَهُنَّ
فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ
ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا
آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ
مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢). وفي آية أخرى يقول «عز وجل»:
﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾^(٣). ويقول
«عز وجل»: ﴿وَأَن تَعُضُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ

(١) سورة البقرة: ٢٢٩.

(٢) سورة البقرة: ٢٣١.

(٣) سورة البقرة: ٢٣٥.

بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^(١). وبعد أن يبيّن بعض الأحكام في سورة الطلاق يقول «عزّ وجل»: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾^(٢).

وفي الحديث النبوي: (استوصوا بالنساء خيراً؛ فإنهن عوانٌ عندكم) أي المرأة أسيرة ورهينة هذه الصلاحية التي أعطتها للرجل ضمن عقد الزواج (أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله)^(٣) وفي هذا تنبيه ضمني إلى أنّ مَنْ يعيث بهذه الصلاحية إنما يجعل الله له خصيماً.

• طلاق الحاكم:

ضمن هذا الوضع، ومن الناحية الشرعية، لا يمكن تجاوز هذه الصلاحية المعطاة للزوج من قبل المرأة واختراقها إلا من قبل الحاكم الشرعي (المجتهد العادل).. أي أنه إذا لجأت الزوجة إليه طلباً للطلاق لأسباب معيّنة، فإنه يقوم حينئذ بالتأكد من الأمر، فلو ثبت له ذلك طالب الزوج

(١) سورة البقرة: ٢٣٧.

(٢) سورة الطلاق: ١.

(٣) النوري: مستدرک وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٢٥٢.

بالطلاق، فإن لم يطلق الزوج، أجبره، فإن لم يطلق أو لم يمكنه إجباره، قام الحاكم الشرعي بتطليقها، وهذا ما يُعرف بعنوان (طلاق الحاكم). وبحسب مجموعة من الفقهاء فإن الأسباب التي من خلالها يتدخل الحاكم الشرعي للطلاق:

١- ما إذا امتنع الزوج من الإنفاق عليها، ومن الطلاق. ويُلحق بها ما إذا كان غير قادر على الإنفاق عليها، وامتنع مع ذلك من طلاقها.

٢- ما إذا كان يؤذيها ويظلمها ولا يُعاشرها بالمعروف، كما أمر الله «عز وجل» به.

٣- ما إذا هجرها تماماً فصارت كالمعلقة، لا هي ذات زوج ولا هي خلية.

• معضلة الحاكم:

بالطبع - ضمن ظروفنا الحالية - فإن اللجوء إلى الحاكم الشرعي وحصول الزوجة على طلاق الحاكم يواجه عدة عقبات، ومن بينها:

١. ضرورة مراعاة المسار القانوني أيضاً، لأننا لو افترضنا حصول الزوجة على الطلاق من خلال حاكم

شرعي، دون المحاكم الرسمية، فإنها ستبقى زوجة بنظر القانون، ويتعقّد وضعها أكثر.

٢. حالياً ليس عندنا في المحاكم في الكويت أي مجتهد يقوم بهذا الدور، ومن الناحية الفقهية، ليس من صلاحيات أي شخص سوى المجتهد أو مَنْ يعطيه المجتهد هذه الصلاحية أن يقوم بذلك. وهذا يعني أن الزوجة لو حصلت في هذه الظروف على الطلاق من خلال المحكمة - دون رضا الزوج - فهو غير معتبر، وبنظر الشرع هي زوجة، وإن كانت من الناحية القانونية مطلقة.

٣. قد يكون من الصعوبة في بعض الحالات أن تُثبت المرأة ما يستوجب طلاقها بأمر الحاكم الشرعي، بل وحتى في المحاكم الرسمية، مما يجعل هذا المسار الوحيد كالعدم.

• توكيل الزوجة :

لعل إحدى الحلول المطروحة لتفادي هذا الوضع منذ البداية هو أن تشترط المرأة في عقد الزواج أن تكون هي وكيلة عن زوجها في أمر طلاقها، أو تكون الوكالة لأبيها أو

لأخيها الكبير، إما مُطَلَقاً، أو في ظرف معيّن، وأنه لو أرجعها في عدّة الطلاق الرجعي استمرّت وكالتها في الطلاق.. أو أن تكون الوكالة لأبيها مثلاً. أو أن تكون وكيلة عن الزوج في خصوص الطلاق الخُلعي، مع وكالة في قبول بذل الخلع. وحيث أنها جَعَلَت الوكالة ضمن عقد الزواج، فلن يستطيع الزوج عزلها منه.. دون أن تسلبه الوكالة الحق في أن يطلقها لو شاء ذلك. في هذه الحالة لا تحتاج الزوجة للجوء إلى حاكم شرعي، ويمكنها بهذه الوكالة أن تطلق نفسها في المحاكم الرسمية لو شاءت ضمن الشروط المعتبرة للطلاق، من حضور شاهدين عدلين وغير ذلك، ويكون طلاقها نافذاً شرعاً وقانوناً، وبمسار زمني قصير دون تعقيدات. ولكن أودّ هنا أن أنبّه إلى أمرين:

١. هذا الأمر غير مألوف، وقد يكون بنظر الرجل المقبل على الزواج - أو والديه - أمراً غير مقبول ومحرج، وقد نلاقي عند طرح هذا الأمر رفضاً من قبلهم واحتجاجاً عنيفاً.. بينما هو من وجهة نظر البنت - ووالديها - أمر إيجابي ومحمود، ونُشكّر على طرحه، ولكن ينبغي أن يكون الحكم في ذلك ما جاء في وصية أمير المؤمنين «عليه السلام» لابنه

الحسن «عليه السلام»: (يا بُنَيَّ، اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبِّ لغيرك ما تحبُّ لنفسك، واکره له ما تكره لها)^(١).. تخيّل أن هذه الفتاة ابنتك، والصورة معكوسة، أمّا كنت تحب أن تتّخذ من الإجراءات ما يضمن سعادتها في المستقبل أو يقلل من الضرر اللاحق بها؟

٢. هذه القضية ذات بُعد اجتماعي ومرتبطة بنفوس الناس وأمزجتهم وأهوائهم أيضاً، وبكل وضوح أقول أننا لا نملك دليلاً عملياً على أن هذا الإجراء يمثل حلاً يعالج مشكلة اجتماعية دون سلبيات، فالمسألة ستكون في بعض الحالات عُرضة لقرار مستعجل وانفعالي وغير مدروس من قبل الزوجة، وقد يكون اتباعاً لهوى، وغير ذلك، تماماً كما هو الحال لو كان الطلاق بيد الزوج وحده.

• دراسة معمّقة :

إن مسألة اشتراط الزوجة أن تكون وكيلةً عن الزوج في طلاق نفسها، أو أن تجعل ذلك لأبيها - أو لأخيها الكبير مثلاً - مطلقاً، أو في حالة توافر شروط طلاق الحاكم

(١) الرضي: نهج البلاغة، الكتاب ٣١.

مسألة تستحق التفكير فيها بجدية ودراستها من النواحي المختلفة، الشرعية والقانونية والاجتماعية، ولربما نكون بحاجة إلى عقد بعض الحلقات النقاشية الجادة التي يشترك فيها أولياء الأمور والشباب من الجنسين وبعض من علماء الدين ورجال القانون والمختصين في علم الاجتماع وعلم النفس للخروج بتصوّر عملي حوله، فقد يكون فيه خلاصٌ من معاناةٍ متكررة تزدحم بها أروقة محاكمنا.



مُتعة الطلاق

للأحكام الشرعية جسد وروح... الجسد هو نفس الحكم... بينما الروح ما يُفترض أن يترتب على الالتزام بالحكم من آثار على المستوى الشخصي، أو العام، أو بحق فرد أو أفراد معينين، أو مجموعة التوصيات والآداب المحيطة بها. فعندما نقرأ قوله «سبحانه و تعالى»: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾^(١)، فإن هذا من جسد الصيام.. لأنه من أحكامه.

أما عندما نقرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ

الصَّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١﴾
فإن ما جاء في نهاية الآية بمثابة شئ من روح الصيام لأنه
يبين شيئاً من غاياته وأهداف تشريعه.

• أغراض البعد الروحي:

البُعد الروحي في الحكم الشرعي قد يكون للتعديل
السلوكي لدى الفرد، كما في الصلاة التي يُراد لها أن تنهى
عن الفحشاء والمنكر، وأن تخلص المصلي من داء الكبر.
وقد يكون اقتصادياً، كمسألة تعديل أوضاع الفقراء من خلال
إخراج الزكاة. وقد يكون اجتماعياً، كما في تشريع الجماعة
والجمعة. وقد يكون على مستوى التوصيات من قبيل الوصية
لبعض الفئات ليكون لهم نصيب من الإرث. كما وقد يكون
على مستوى إنصاف فرد أو أفراد معينين، كما في أحكام
الطلاق والحضانة.

ومن هنا، فإن من يتعامل مع الحكم الشرعي كجسد
فقط، فإنه قد يخسر البُعد والوجه الآخر من الحكم
الشرعي، ولربما يخسر الغاية الحقيقية من تشريع الحكم،

بل والأسوأ من ذلك، مَنْ يسيء استخدام وتوظيف الحكم الشرعي، كذاك الذي يسيء استخدام مسألة حضانة الطفل عند الطلاق للانتقام من الطرف الآخر، ولا يلاحظ مصلحة الطفل في ذلك.

• حضانة الطفل:

والأصل في مسألة الحضانة أن يتربى الطفل ويحتضن من الطرفين بعد الطلاق، وأن يتم ذلك بالتفاهم والتراضي، أما نقل الحضانة إلى أحد الطرفين لسنوات، ثم نقلها للآخر بعد سنوات، ثم تخيير الطفل عند البلوغ، فهو ليس حكماً إلزامياً ابتداءً، بل نلجأ إليه عندما لا يكون هناك مجال للتفاهم والتراضي بينهما بما يحقق مصلحة الطفل.

ومثل ذلك مَنْ يسيء استغلال حق الرجعة في عدة المطلقة الرجعية، لا رغبة في إعادة العلاقة الزوجية الصالحة، بل لمجرد إيذاء المطلقة وتعليقها، والحال أن هذا التشريع قد وُضع من أجل تيسير عودة العلاقة الزوجية دون تكلف مهر وعقد جديد بما يخدم مصلحة الطرفين.

ومن هنا نجد أن الله «سبحانه و تعالى» يجعل إلى جانب

تشريعات الطلاق مجموعة من التوصيات، وواحدة منها ما جاء في الآية التالية: ﴿وَالْمُطَلَّقاتِ مَتاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١).

• رسالة طيبة :

فإن الله يوصي الزوج الذي أقدم على الطلاق أن يُقدِّم لمطلقاته هدية (متاع) بحسب تعبير الآية الشريفة، كنوع من أنواع تطيب خاطر على عدم استمرارية الحالة الزوجية، وللدلالة على أن انفصالهما لا يمثل عقدة في ذاته تجاهها، ولا عداوة لها، بل هو أمر فرضته التعقيدات أو الخصوصيات المتباينة التي أحاطت بالعلاقة الزوجية.

وقد اعتبرت الآية الشريفة أنّ هذا النوع من التصرف ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، فالتقوى الحقيقية هي التي تحث على فعل الخير تجاه الآخرين، لأنّ مَنْ أَحَبَّ اللَّهُ أَحَبَّ النَّاسَ، فأحبّ تقديم ما ينفعهم، ولأنّ الله يريد للحياة من حولنا أن تكون آمنة مستقرة مترابطة وقوية متصالحة، لا حياة أزمت ومشاكل وتعقيدات وخلافات وصراعات.

(١) سورة البقرة: ٢٤١-٢٤٢.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي انتبهوا إلى روح التشريعات وتفكروا فيها وتعقلوها لكي تعرفوا ما وراءها وتوظفوها في الاتجاه الصحيح، وتستفيدوا منها في حياتكم إذ بيّنها الله لكم.

هكذا يوصي الله «سبحانه وتعالى» أن يكون الجو العام لخواتيم مسألة الطلاق، بينما نجد أن الوضع على النقيض من ذلك على المستوى العملي، حيث يتحوّل الطلاق إلى خصومة عنيفة وفجور في الخصومة ونزاع وبحث في الاستفتاءات عن الحكم الشرعي لهدية قدّمها الزوجة لزوجها، وعن ثوب اشتراه الزوج لزوجته، وهل يحق له المطالبة بثمنه، بل قد تنشب الخصومة على ما أنفقه الرجل في وجبات العشاء التي جمعت الطرفين وأمثال ذلك.

إنّ التشريعات الإلهية جسد وروح، ومتى ما استغرقنا في الجسد ونسينا الروح فإنّنا نقوم بتضييع الكثير من فوائد ذلك التشريع وآثاره العملية والتقوائية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.



النموذج النبوي

لا ريب ولا شك في أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» كان صاحب الخلق العظيم، وكان أفضل الناس تعاملًا مع زوجاته وهو القائل مخاطباً الرجال: (خيرُكم خيرُكم لأهله) أي أن تكامل الصورة الإيمانية والأخلاقية والاجتماعية للرجل لا تتحقق إلا من خلال حُسن تعامله مع زوجته وأبنائه، وكلما ارتقى في ذلك ارتقى في صورته الإجمالية إيجاباً، ثم قال «صلى الله عليه وآله»: (وأنا خيرُكم لأهلي)^(١).

ومع هذا، فإن القرآن الكريم تحدّث عن وقوع خلافات داخل البيت النبوي، بينه وبين بعض أزواجه، وبالمستوى

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٢٥٣٣٧.

الذي تطلب أحيانا تدخلًا إلهيًا لصالح النبي، من أجل سرعة إنهاء المسألة، حفاظاً على سمعة هذا البيت ومكانته.

واحدة من هذه المشاهد ما جاء في سورة التحريم:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ... إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ، عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكُمْ مَّسْلُمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾^(١).

وحدث مثل هذه الخلافات في الوقت الذي كان فيه رسول الله «صلى الله عليه وآله» خير الناس إلى أهله إنما يعود للطرف الآخر من المشكلة الذي قد يصدر عنه ما يسبب بعض الأجواء المشحونة التي تؤدي إلى مثل ذلك، في الوقت الذي كان يسعى فيه النبي أن يعالج الأمور بحكمة، ولو بالتخلي والتنازل عن حق من حقوقه، أو عن أمر متاح له، كما هو واضح في الآيات السابقة.

• وضع استثنائي:

ثم إن للبيت النبوي وضعاً استثنائياً محاطاً ببعض الأحكام والتدابير المشددة رعايةً لسمعته وخصوصيته ودرء أية شبهة ونقطة ضعف قد يستغلها بعض المنافقين أو الذين في قلوبهم مرض للإساءة للنبي وأسرته، وذلك من قبيل ما جاء في آيات من سورة الأحزاب: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ...﴾^(١) .. ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾^(٢) .. ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾^(٣) . والحجاب هنا لا يعني اللباس، بل الحاجز كالباب والستارة وما أشبه ذلك.

هذا مضافاً إلى زهد النبي ذاتاً، بالإضافة إلى خصوصية موقعه كقائد، بما يحمله مسئولية أن يواسي أشد الناس فقراً وحاجة، والتخلي عن أي مظهر من مظاهر الإقبال على الدنيا. وقد روي عن بعض أمهات المؤمنين: (ما شبع آل محمد «صلى الله عليه وسلم» منذ قدم المدينة من طعام

(١) سورة الأحزاب: ٣٢.

(٢) سورة الأحزاب: ٣٣.

(٣) سورة الأحزاب: ٥٣.

الْبُرِّ ثَلَاثَ لَيَالٍ تَبَاعاً حَتَّى قُبُضَ) ^(١). وفي رواية أخرى: (إِنْ كُنَّا آلَ مُحَمَّدٍ «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ» لَنَمُكُّ شَهْرًا مَا نَسْتَوْقِدُ بَنَارَ، إِنْ هُوَ إِلَّا التَّمَرُ وَالْمَاءُ) ^(٢).

وبين أيدينا مشهد آخر، فعن زرارة، عن أبي جعفر الباقر «عليه السلام» قال: (كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» إذا أراد السفر سلّم على من أراد التسليم عليه من أهله، ثم يكون آخر من يسلم عليه فاطمة «عليها السلام»، فيكون توجهه إلى سفره من بيتها، وإذا رجع بدأ بها، فسافر مرة وقد أصاب عليّ «عليه السلام» شيئاً من الغنيمة، فدفعه إلى فاطمة، ثم خرج، فأخذت سوارين من فضة وعلقت على بابها سترًا، فلما قدم رسول الله «صلى الله عليه وآله» دخل المسجد، فتوجه نحو بيت فاطمة «عليها السلام» كما كان يصنع، فقامت فرحة إلى أبيها صباةً وشوقاً إليه، فنظر «صلى الله عليه وآله» فإذا في يدها سواران من فضة، وإذا على بابها ستر، فقعد رسول الله «صلى الله عليه وآله» حيث ينظر إليها، فبكت فاطمة وحزنت وقالت: ما صنع هذا

(١) صحيح البخاري: ح ٥٤١٦.

(٢) صحيح مسلم: ح ٢٩٧٢.

أبي قبلها، فدعت ابنيها ونزعت الستر من بابها وخلعت السوارين من يدها، ثم دفعت السوارين إلى أحدهما والستر إلى الآخر، ثم قالت لهما: انطلقا إلى أبي فأقرئاه السلام وقولا له: ما أحدثنا بعدك غير هذا، فما شأنك به؟ فجاءاه فأبلغاه ذلك عن أمهما، فقبلهما رسول الله «صلى الله عليه وآله» والتزمهما، وأقعد كل واحد منهما على فخذه، ثم أمر بذيْنك السوارين فكسرا، فجعلهما قطعاً قطعاً، ثم دعا أهل الصُّفَّة، قوم من المهاجرين لم يكن لهم منازل ولا أموال، فقسمه بينهم قطعاً، ثم جعل يدعو الرجل منهم العاري الذي لا يستتر بشيء. وكان ذلك الستر طويلاً وليس له عرض، فجعل يؤزر الرجل فإذا التقا عليه قطعُه، حتى قسمه بينهم أزرأ... ثم قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: رحم الله فاطمة، ليكسونها الله بهذا الستر من كسوة الجنة، وليحليْنها بهذين السوارين من حلية الجنة^(١).

لا شك أن هذا الوضع المشتمل على القيود الإضافية، وجشوبة العيش بذلك المستوى، أمرٌ صعب لا يتحمّله كلُّ أحد، وهو ما قد يدفع بالأمور أن تصل - ببعض أزواج

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٨٣-٨٥.

النبى - إلى طريق مسدودة، عند الشعور بعدم القدرة على الاستمرار، والتفكير - ولربما التصريح - بذلك.

فكيف كان تعامل النبى «صلى الله عليه وآله» في مثل هذا الظرف؟ وماذا قدّم له القرآن الكريم ولنا من توجيهات تهدف إلى التعامل الإنساني الراقى والحكيم الذي تُحفظ من خلاله كرامة الطرفين وحقوقهما؟

• التعامل الراقى:

جاء الخطاب القرآني الموجّه لأزواج النبى واضحاً وصريحاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ وذلك بأن تأخذ كل واحدة منكن حقوقها الواجبة بالعقد، مع زيادة على ذلك من نفقة أو عطية مقبولة، كما قال «تعالى»: ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾^(١) من عنده تقوى لا يعيب بهذا الحكم الإلهي ﴿وَأَسْرَحْنَ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ لتأخذن حريتهن في أجواء المودة والرضا والإحسان والمعروف ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ﴾ وعلى

استعداد لإكمال المشوار مع الصبر وحُسن التبُّع والتضحية وتقديم المصالح العامة على المصلحة الشخصية ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١). هكذا يكون التعامل الراقى والإنساني عندما تصل الأمور بين الزوجين إلى طريق مسدودة: ﴿فَتَعَالَيْنِ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾... ﴿وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾... ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِحِي بِإِحْسَانٍ.... وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأُمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾^(٢)، حيث لا تتحوَّل الأوضاع بينهما في أجواء الطلاق أو الانفصال أو الخصومة إلى ما يشبه ساحة حرب بين عدوين لدودين، بحيث تدفع بكلٍّ منهما إلى استخدام أبشع الوسائل لإنزال الهزيمة بالآخر، أو الانتقام منه، أو ابتزازه، أو التشهير به، أو تحويل حياته إلى جحيم مستمر.

تذكر كتب السيرة أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» تزوّج من أميمة -أو أسماء- بنت النعمان الجونية الكندية،

(١) سورة الأحزاب: ٢٨-٢٩.

(٢) سورة البقرة: ٢٢٩-٢٣١.

وصفت بالجمال، وكانت ذات حسب ونسب، وكندة كانت مملكة، فلما دخل عليها النبي قالت: (وهل تهب الملكة نفسها للسُّوق؟ قال: فأهوى بيده يضع يده عليها لتسكن، فقالت: أعوذ بالله منك. فقال: قد عُذتِ بمعاذ. ثم خرج علينا فقال: يا أبا أسيد، اكسُها رازقتين) نوع من الثياب الطويلة المصنوعة من الكتان (وألحقها بأهلها)^(١).

وللأسف، فإن قضايا الطلاق والانفصال والخصومة بين الأزواج في مجتمعاتنا اليوم هي أبعد ما تكون - في الأعم الأغلب - عن مثل هذه الحالة الراقية والإنسانية والحضارية من التعامل الذي يحفظ كرامة طرفي القضية وحقوقهما.

• سوء استغلال:

ومن أعقد وأسوأ الحالات تلك التي يمتنع فيها الزوج عن الطلاق على الرغم من انسداد طريق الاستمرار في الحياة الزوجية بينهما، وبعد كل محاولات الإصلاح، حيث يستغل انحصار سلطة الطلاق به، ويوظف ذلك في الانتقام من زوجته ويذرهما معلقة، لا زوجة ولا مطلقة. وإذا أخذنا

(١) العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٤، ص ٢٤٣.

بعين الاعتبار تعقيدات أوضاع المحاكم في هذا الزمان، وتراكم القضايا، وامتداد التخاصم فيها لسنوات، وتكاليفها المالية المرهقة، وافتقار القضاة - من الفقهاء العدول - في محاكمنا ممن يملكون حق طلاق الحاكم، فستكون صورة الوضع المعقد والسيء أكثر وضوحاً.

• وكالة الطلاق:

وقد اقترحت مسبقاً التفكير بجديّة في مسألة توعية الفتاة عند إقدامها على الزواج على أن بإمكانها أن تشتت في عقد الزواج أن تكون وكيلة عن زوجها في أمر طلاقها، إما مُطلقاً، أو في ظرف معيّن، وأنه لو أرجعها في عدّة الطلاق الرجعي استمرّت وكالتها في الطلاق، أو أن تكون الوكالة لأبيها، أو يكون ذلك محدوداً في حالة الطلاق الخُلعي... إلخ. ولأن المسألة ذات تعقيدات متعددة الجوانب، ولأنها قضية غير مألوّفة، ولأننا لا نملك دليلاً عملياً على أن هذا الإجراء يمثّل حلاً يعالج مشكلة اجتماعية دون سلبيات، بل لربما قد يفاقمها، لذا فقد اقترحت عقد بعض الحلقات النقاشية التي يشترك فيها أولياء الأمور والشباب من الجنسين وبعض علماء الدين ورجال القانون والمختصين في علم الاجتماع

وعلم النفس للخروج بتصور عملي حولها.. سواء مع أو ضد.
وقد عرفت قبل شهر تقريباً، من أخي العزيز سماحة
الشيخ حسن الصفار، وهو من أعلام القطيف كما لا يخفى،
أن هذه المسألة - ومنذ عدة سنوات - صارت دارجة ومعمول
بها هناك، وأن مجتمع القطيف تخطى حالة الاستيحاش
من تطبيقها. ولربما يكون الانفتاح على تجربتهم في هذا
المجال مما يُعين على جلاء الصورة عندنا.

إننا إذ نستحضر في ذاكرتنا وفي خطاباتنا وفي
منتدياتنا السيرة المباركة لرسول الله «صلى الله عليه
وآله»، ومعالم شخصيته العظيمة، فإننا بحاجة إلى أن نحول
ذلك كله إلى محطات لتفعيل الصور الإيجابية التي تزخر
بها على مستوى التكامل الذاتي والاجتماعي، وأن لا نجعلها
حبيسة النصوص والنفوس بما لا يتجاوز حد التعظيم
والتباهي. وسيرته الحكيمة في تعامله مع أزواجه، وفي أجواء
الخلافات الأسرية، وما جاء حول ذلك من وصايا ومعالجات
قرآنية، جدير بأن يتحول إلى منهج عملي في إطار التعامل
مع الأوضاع المشابهة التي قد نعيشها أو قد تعصف بنا من
حيث لا نتوقع ولا نريد.



الطلاق الناجح

العقل والشرع يؤكدان على لزوم السعي الجاد من أجل الإصلاح بين الزوجين المتخاصمين، إلا أن الخلافات أو المشكلات بينهما قد تصل إلى طريق مسدود، فيكون الطلاق رحمة في بعض نتائجه، وتغلب المصلحة فيه على السلبيات المترتبة عليه.

وبدلاً من أن يكون الطلاق نهاية الخط بالنسبة إلى هذين الزوجين، لتبدأ مسيرة الراحة وإعادة ترتيب الأوراق والتخطيط للمستقبل، فإنه عادةً ما يتم تحويل الطلاق إلى نقطة بداية لمسيرة طويلة من الخلافات والنزاعات

والتقاضي والانتقام وغير ذلك مما تُتخَم به ملفّات القضايا في محاكمنا، حول النفقة وحضانة الأطفال، إلخ.

وهذا ما يُحوّل طلاقهما إلى مشروع فاشل - تماماً كما كان زواجهما - وليُدخل الطرفين في دوامة جديدة لربما تطول إلى سنوات وسنوات.. وما قيمة هكذا حياة؟ ولذا من المهم أن نعي كيف يمكن تحقيق الطلاق الناجح!

• لا تستعجل في الحكم:

وقد يستهجن البعض هذا التعبير، ولكن هل ندفن رؤوسنا في التراب أمام حقيقة قائمة تتمثل في وجود نسبة كبيرة من حالات الطلاق الفاشل، بل هي النسبة الأكبر من حالات الطلاق في مجتمعا، أم نواجه ذلك بوضوح وجراحة لنخفف من تبعاتها وآثارها العميقة على المستوى المالي والنفسي والتربوي والاجتماعي.

في القرآن الكريم حديث متعدد عن الطلاق، في أبعاده الشرعية والاجتماعية والنفسية والأخلاقية، في مقدماته وآثاره، وتتركز أكثر هذه الآيات في سورة البقرة ابتداءً من الآية ٢٢٧ من هذه السورة المباركة، والقراءة الواعية لهذه

الآيات تكشف أن القرآن يُقدِّمُ أسس الطلاق الناجح، معتمداً في ذلك تارةً على التشريع، وتارةً على الأخلاق، وأخرى على الوجدان، ورابعةً على التقوى.

ولنلاحظ الآية التالية: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١)... أربعة أسس مهمة لتحقيق طلاق ناجح: إعطاء الحق - العفو - تذكر الفضل - العلم الإلهي.

إعطاء الحق: ومورد الآية الحفاظ على نصيب المرأة من المهر عند الطلاق قبل الدخول، وعدم استغلال عنصر القوة لحرمانها من حقها.

العفو: كأساس أخلاقي يصدم الواقع، حين يتجاوز أحد الطرفين عن حقه كاملاً أو جزئياً، فيزيح كمّاً هائلاً من الضغط النفسي والاحتقان المرشح أن يُولد المزيد من صور الصراع والتأثر: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ

بِأَتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ
حَمِيمٌ ﴿١﴾.

تذكرُ الفضل: كأساس وجداني عاطفي يثير الشجون،
وذكريات تلك الأيام الجميلة التي جمعت الطرفين.. أيام
الخطوبة، وشهر العسل، وأول مولود، ومواقف التضحية
من أجل راحة الآخر.. فتهدأ معها النفس، وتعود إلى شئ
من اتزانها الذي لربما يكون وسيلةً للعفو والتنازل وإغلاق
ملفات الخصومة والتصالح على المستقبل.

الأساس الإيماني: بأن الله «سبحانه» العليم السميع
البصير الذي لا تخفى عليه خافية، وأن من يتتبع سلبيات
الآخر ليسقط شخصيته، أو ليحقق مكاسب شخصية، فإن
الله سيكشف حقيقته وسلبياته، وأن عقاباً أخروياً ينتظره،
وفي المقابل فإن من يعفو ويفرج كربة مؤمن يفرج الله عنه
سبعين كربة، وأن الله لا تخفى عليه خافية.

فمن الضروري لإنجاح أي حالة طلاق أن يتم الأمر
بهدوء بعيداً عن اللجوء إلى التخاصم عند القضاء، وأن

يتفق الطرفان على الترتيبات المتعلقة بحضانة الأطفال،
 علماً بأن الشرع عندما جعل حضانة السنوات الأولى للأم،
 فإن هذا من جهة فصل النزاع، والأفضل أن يتم الاتفاق
 بلا نزاع على أن يتربى الأطفال مع الأبوين، وأن يتم تقاسم
 الأوقات والأيام بصورة ودية وبما يعود بالصالح على الجميع
 وعدم تحويل الأمر إلى وسيلة للانتقام... وهكذا بالنسبة إلى
 المسائل المالية والتي قد تحتاج إلى بعض التنازل من هذا
 الطرف وذاك، وغيرهما.

لقد قدّم القرآن الكريم صورة دقيقة وإنسانية للطلاق
 الناجح حيث قال «سبحانه»: ﴿فَإِمْسَاكِ بِمَعْرِوفٍ أَوْ تَسْرِحِي
 بِإِحْسَانٍ﴾^(١)، لكل ما للإحسان من معنى وصور وانعكاسات،
 بعيداً عن الإساءة في الموقف وفي الكلمة وفي المشاعر،
 وليكن نصب أعيننا قول الباري «سبحانه»: ﴿وَمَا تَقْدِمُوا
 لَأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا
 وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾^(٢).

(١) سورة البقرة: ٢٢٩.

(٢) سورة المزمل: ٢٠.



بين القانون والشرع

في الأسبوع الماضي^(١) انعقد في الكويت المؤتمر الأول ليوم المرأة العالمي المقام من قبل تجمع تواصي الإسلامي الوطني، وكان محور المؤتمر في اليوم الثاني حول حقوق المطلقة بين العرف والشرع والقانون.

من خلال الأوراق التي قُدمت والنقاشات الجانبية يتأكد وجود فجوة ما بين الرأي القانوني في بعض القضايا مع الرأي الشرعي، وفجوة أخرى ما بين الفرد وبين الرأي الشرعي. والمشكلة لا تتوقف عند حد الوقوع في الإثم بمخالفة الحكم

(١) كان ذلك في جمادى الآخرة ١٤٣٣ هـ، مايو ٢٠١٢ م.

الشرعي، كي يفكر الإنسان بالتوبة والاستغفار للتخلص من التبعات، بل هي ذات آثار وضعية أيضاً، قد تترتب عليها أحياناً بعض الآثار الاجتماعية الكارثية على مستوى الأفراد. ولنأخذ بعض الأمثلة على ذلك :

• طلاق الحاكم:

هناك نوع من الطلاق يُعرف بعنوان طلاق الحاكم، وهو في فقها يعني أن يقوم المجتهد الجامع للشرائط بتطبيق المرأة من زوجها لسبب ما يثبت عنده، على أثر رفع المرأة قضية بهذا الشأن. والأسباب محدودة جداً، لأن الأصل أن العلاقة الزوجية تستمر، وأن الطلاق بيد الزوج نفسه، وهذا هو الوضع الطبيعي، أما عندما يقوم شخص آخر كأب الزوج (الولي) أو الحاكم الشرعي بالتطبيق فهذا يعتبر حالة استثنائية ويُجأ إليها في بعض الموارد الضرورية والاستثنائية.

من هذه الحالات الاستثنائية رفض الزوج الإنفاق على زوجته وهو قادر على ذلك، حتى مع إجبار الحاكم الشرعي، وحينها يأمره الحاكم بتطبيق زوجته، فإنَّ رفض، يتدخل

الحاكم الشرعي بنفسه فيطلقها طلاقاً بائناً لا يستطيع الزوج خلال عدة هذا الطلاق أن يرجع إلى زوجته. وإذا أراد إرجاعها فلا بد له من عقد جديد برغبتها ومهر جديد.

وتظهر المشكلة فيما لو لم يكن القاضي مجتهداً جامعاً للشرائط، إمامياً كان أو غير ذلك، وحينها يقع طلاق الحاكم باطلاً ولغواً، وتبقى المرأة - شرعاً - على وضع الزوجية، وإن كانت من الناحية الرسمية مطلقة. فإذا ذهبت وتزوجت جهلاً منها بالمسألة بطل زواجها الثاني، وحرمت على زوجها الثاني حرمة مؤبدة! ولك أن تتخيل ردة فعل الزوجة عند اكتشافها لهذه الحقيقة الكارثية بعد عدة سنوات، وأثر ذلك على الأبناء المتولدين من هذا زواج غير صحيح.

المثال الآخر اللجوء إلى المحكمة السنية في قضايا الأحوال الشخصية، من قبيل الطلاق والخلع وحضانة الطفل والنفقة وغير ذلك، فبعض المحامين يوجهون الزوجة إلى مثل هذا الأمر على أن تُقسم بالتورية بأنها سنية المذهب، باعتبار أن حكم القاضي هناك سيكون أسرع أو أيسر وأمثال ذلك من المبررات.

فلو حدث ذلك فالحكم سيكون بالنسبة إلينا فقهياً غير نافذ، والمال الذي تأخذه المرأة بهذه الوسيلة قد يكون سحتاً، والحضانة قد تكون تصرفاً محرماً إلخ.

المثال الثالث الفسخ، والذي يعني إنهاء الحياة الزوجية دون طلاق، ويتحقق ذلك فيما لو كان هناك عيب في الزوجة أو الزوج، فيعتبر الزواج حينها لاغياً إن أراد أحد الزوجين عدم المضي فيه.. والعيوب محدودة وفق الرأي الفقهي المشهور. ولكن قد يقوم بعض المحامين - وفق القانون الساري - بتشجيع أحد الطرفين على طلب الفسخ لعيب معين مقبول قانونياً مرفوض شرعياً، ويقع الفسخ وتذهب المرأة لتتزوج بعد ذلك، ثم تكتشف بعد سنوات أنها مازالت على ذمة الأول من الناحية الشرعية. والأمثلة كثيرة.

• الثقافة الشرعية :

المهم في البين هو الاطلاع على الرأي الفقهي بدقة شديدة وبمراعاة الاحتياط في عرض السؤال بحيث لا توجه الإجابة لتصب في مصلحة، بل تُعرض القضية كما هي ليأتي الجواب الفقهي مطابقاً لواقع القضية.

وهكذا لو صدر حكم قضائي غير مطابق للفتوى، فلا بد من تصحيحه بمراجعة الحاكم الشرعي وعدم التهاون في ذلك.

• التحلي بالتقوى:

المسألة الأخرى هي التحلي عن التقوى عند حدوث أمثال هذه الخلافات سواء على الطلاق أو المواريث أو حق الحضانة وما إلى ذلك، فالزوج يكذب ويحضر إخوانه ليشهدوا زوراً بأنه ينفق وأنه يعاملها بالمعروف وما إلى ذلك.. والزوجة تكذب وتضخم المشاكل بينه وبين زوجها لتنتقم منه أو لترضخه لسيطرتها.

وتجد أحياناً كثيرة أن بعض المحامين يوجهون موكلهم إلى ذلك بغرض مادي بحت، كما تجد أن أصحاب القضية من المصلين الصائمين الحاجين لبيت الله، بل قد يكونون من أهل الحضور الدائم في المساجد والحسينيات ولكن في نهاية المطاف حينما يصبحون على المحك يتخلّون عن ذلك كله في مقابل مكسب مادي، أو انتقام وتشفي، أو انتصار لقريب أو صديق ولو بالباطل.

• مراعاة البُعد الاجتماعي:

المسألة الثالثة هي عدم الاقتصار على البعد الشرعي عند السؤال عن مثل هذه القضايا، فهي قضايا اجتماعية قد يجيز الشرع ذلك الموقف ولكنه لا يوجبه، وهنا عند الاستفتاء أو عند التفكير لابد من أخذ البعد الاجتماعي بعين الاعتبار.. أحد الأئمة عليهم السلام يسأل عن حرمة شئ فيقول: (حلال إلا أنا أهل البيت نعافه)^(١).. فليس كل مباح يُفعل. ولذا من الضروري أيضاً التفكير في أثر ذلك القرار على الأطفال، أثر ذلك على سمعة الأسرة، كيف سيرتب الإنسان مستقبل حياته، وهل الوضع القادم أفضل من الوضع القائم، هل يتناسب هذا الموقف مع الأخلاق الرفيعة والقيم التي أتبناها، أي المواقف أحب إلى الله.. وغير ذلك.

ولذا المطلوب عدم التوقّف عند حدّ معرفة الجواب الشرعي.. ولا تقل عندي فتوى بجواز ذلك.. بل لابد من الأخذ بعين الاعتبار الجانب الآخر من الموضوع، وهو

(١) الكليني : الكافي، ج ١، ص ٣٤٩.

الداخل تحت عنوان (الحكمة).

إن كل ما سبق نلاحظه جلياً في قول الله «سبحانه وتعالى»: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَحوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١)

والتي يقول العلامة السيد فضل الله في ديباجة تفسيره لها: (في هذه الآية نداء للأزواج الذين يستغلّون الحقّ في الرجوع في العدة، كوسيلة من وسائل الإضرار بالزوجة... فهو لا يريد أن يرجع إليها لساكنها ويعاشرها بالمعروف، كما يعيش الزوج مع زوجته بالطريقة الإنسانية السمحة، بل يحاول أن يضارّها ليجعلها في ما يشبه السجن من الحياة الزوجية المضغوطة بضغط العدوان والحقّد، وليمنعها من أن تجد لنفسها السبيل في حياة جديدة، في تجربة أخرى مع زوج آخر... وهكذا يتصرّف لينفّس عمّا يحمله في داخله من عوامل الحقّد. إنّ الله يخاطب من يفعل ذلك، بأنّه ممّن

ظلم نفسه بمعصيته ربه؛ لأنَّ في ذلك إثمًا وانحرافاً عن خطِّ الله، واستهزاءً بآيات الله من ناحية عملية، وإن لم يكن كذلك من ناحية شكلية. فإنه لا فرق بين من لا يحترم آيات الله بالكلمة، وبين من لا يحترمها بالعمل.

ثمَّ يذكرهم الله بنعمته عليهم في ما أولاهم إياه من ضروب النعم، ويثير أمامهم التفكير الواعي في ما أنزله الله عليهم - بواسطة أنبيائه - من الكتاب الذي يهدي الإنسان السبيل إلى النور ويبعده عن الظلمة، ومن الحكمة التي تخلق للإنسان الرؤية الواضحة والفهم المستقيم والوقوف عند العلامات الثابتة للأشياء... ففي ذلك كله الموعظة، كلَّ الموعظة، التي تدعو إلى التقوى، وتدفع إلى النجاة، وتبعث على الشعور العميق بالرقابة الشاملة الواعية من قبل الله الذي لا بُدَّ للعباد من أن يعلموا بأنه عليم بكلِّ شيء؛ فهو الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء^(١).

(١) فضل الله: من وحي القرآن، تفسير الآية ٢٣١ من سورة البقرة.



طلاق أبناء الطلاق

قال «تعالى»: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةُ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(١).

تشير الآية السابقة إلى سوء تصرف بعض الأزواج حين الخصومة بينهما بجعل الأبناء وسيلة من وسائل الانتقام من بعضهما البعض، كما جرت العادة وما زالت، دون مراعاة

(١) سورة البقرة: ٢٣٣.

لمصالح الأبناء ومشاعرهم. ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد، فحتى مع عدم اللجوء إلى استخدام الأبناء في عملية الانتقام هذه، تبقى التأثيرات السلبية للطلاق والخصومة حاضرة بالنسبة إلى الأبناء.

هذه التأثيرات قد تكون قريبة الظهور، وقد تكون بعيدة مستقبلية، ومن بين الآثار المستقبلية ما عكسته بعض الدراسات الميدانية التي خلصت إلى أن: (أطفال الآباء المطلقين أكثر عرضة لخوض تجربة الطلاق عندما يتزوجون في المستقبل)^(١) إذ يزيد الاحتمال إلى الضعف مقارنة بأمثالهم ممن لم يعانون من طلاق الأبوين.

وقد يبدو الأمر غريباً للوهلة الأولى، إذ يُفترض بمن يعيش تجربة مريرة أن يتجنب مسبباتها أو خوضها على المستوى الشخصي في المستقبل.. فما الذي يدفع أبناء الطلاق لتكرار التجربة السلبية لآبائهم؟

يُرجع ذوو الاختصاص هذه المفارقة إلى عدة عوامل:

١. القلق: فمع التغير السلبي المفاجئ في العلاقة بين

الزوجين، ومعاينة الأبناء لذلك، فإن القلق من المستقبل الغامض سيكون مسيطرًا، وسيفقد الأبناء الإحساس بالأمن الذي كانوا ينعمون فيه من قبل، ولو بشكل نسبي، خاصة إذا لاحظنا انعدام أو قلة التجربة عند الأطفال في القضايا الاجتماعية من هذا القبيل، ولا سيما بلحاظ بعض الإحصاءات التي تشير إلى أن ٦٠٪ من حالات الطلاق تقع عندما يكون الأطفال قَصْرًا.

والإحساس بالأمن قضية محورية في التكوين النفسي والاجتماعي للطفل، ولذا كثيراً ما يتم التشديد على أن يتولَّى الأبوان القيام بإطعام الطفل في طفولته المبكرة ونظافته وكسوته، وعدم إيكال ذلك إلى الخادمة.. لأن مفهوم الأمن بالنسبة إليه يتلخَّص في هذه الأمور، ومع إيكالها إلى الخادمة، فإن الطفل سيعتبر أنها هي مصدر الأمان، وسيكون متعلقاً بها كثيراً، كما أن فقدانها سيترك أثره النفسي الواضح عليه.

في دراسة على ٤٨ طفلاً في مرحلة رياض الأطفال انفصل والداهم بالطلاق، و٤٨ طفلاً يعيشون مع والديهم، تبين ارتفاع معدلات سوء التوافق النفسي والاجتماعي لدى

الفئة الأولى بدليل: (التصرفات العدوانية - عدم الاستقرار في الفصل - مصّ الأصابع - صعوبات في النطق - ضعف الحصيلة اللغوية).

٢. التشاؤم: فقد يسبب الطلاق بلورة شعور متشائم تجاه العلاقات كالزواج أو حتى الصداقة. ولكن لربما يمكن التخفيف من ذلك بشكل كبير في ما لو نجح الأبوان في تحقيق ما تحدثنا عنه ذات مرة بعنوان الطلاق الناجح

ومن أمثلة ذلك: السماح بتبادل الحضانة والرعاية والرؤية بشكل سلس ومرن بين الأبوين بعيداً عن حالة المحاصصة للطرف الآخر، وعدم إثارة كل طرف لأبنائه ضد الطرف الآخر بذكر السلبيات والكلمات المهينة.

وهذا من شأنه أن يساعد الأبناء على تعلم أنه ليس من الضرورة أن تؤدي الخلافات إلى انهيار كامل في العلاقات الاجتماعية، كالزواج والصداقة.

ومن نتائج التشاؤم فقدان الثقة بالشريك، فعندما يكون الطلاق نتيجة وجود علاقة بين الأب مثلاً وبين امرأة أخرى -محللة كانت تلك العلاقة أم محرمة- فإن هذا التصرف

يوصل رسالة سلبية إلى الأبناء مفادها عدم إمكانية الثقة بالشريك ضمن أية علاقة الاجتماعية، إذ أن الأطفال ينظرون إلى آبائهم - عادة - نظرة إكبار وإجلال واقتداء، وأنهم أهم الناس بالنسبة إليهم، وأنهم أفضل من سائر الناس. ولا شك في أن الحالة السابقة يمكنها تدمير تلك الصورة ذات الهالة الكبيرة.. لذا فمن المهم جداً الحفاظ على المناقشات الدائرة حول تلك المشكلة بعيداً عن الأبناء.

٣. الانطوائية والخجل المفرط: ففي الوقت الذي يكون فيه بعض أطفال الطلاق عدوانيين، فإن البعض الآخر منهم يلجأ إلى الانطواء، ويتملكهم الخجل المفرط هروباً من نظرة الأقران إليهم، ومن الكلمات المسيئة الصادرة من المجتمع المحيط بهم، دون امتلاك القدرة على الرد أو الدفاع عن النفس.

هذه الانطوائية وحالة الخجل المفرط، تُعرّضهم إلى فشل التجربة الزوجية في المستقبل، لاسيما تحت ضغط متطلبات الحياة الزوجية ومسؤولياتها وتحدياتها المختلفة.

٤. ضعف الأداء: فقد كشفت بعض الدراسات أن الأطفال

الذين عايشوا حالات الطلاق، هم أكثر ميلاً من أقرانهم لإظهار أداء متعطل وضعيف في أنشطتهم اليومية (بما في ذلك دراستهم).

وهذا الأداء الضعيف قد يستمرّ معهم إلى حين الارتباط بشريك الحياة، ليظهر ذلك العيب جلياً وسط الظروف المتغيرة والمتقلّبة.



الشريعة أم الحكمة؟

لا يصح التعامل مع القضايا ذات البُعد الاجتماعي من خلال المسائل الشرعية فحسب، بل لابد من الأخذ بعين الاعتبار الظروف الموضوعية وخصوصيات المشكلة وبعض العناوين الثانوية التي تحيط بها، وأسوق هنا بعض الملاحظات:

• بين الإباحة والإلزام:

في القضايا ذات البُعد الاجتماعي، وخصوصاً قضايا الزواج والطلاق، وما يتعلّق بهما من مسائل الحضانة والإنفاق وغيرهما، قد يجيز ويبيح الشرع أمراً ما، ولكن

الإباحة لا تعني الإلزام، وليس كل مُباح يُفعل.. بل لابد من تغليب الحكمة والمصلحة في القرار المتخذ. يُسأل أحد الأئمة «عليهم السلام» عن حرمة شيء فيقول: (حلال، إلا أنا أهل البيت نعاؤه)^(١).

ولذا لو استفتى أحد طرفي الخصومة، وجاء الجواب بالجواز، فلن يكون هذا كافياً لاتخاذ القرار، أو للتمسك به كذريعة للموقف الذي يتخذه السائل، بل لابد من الأخذ بعين الاعتبار مثلاً البُعد الاجتماعي والآثار السلبية التي قد تترتب على هذا الاختيار.

• أبعاد حساسة :

مثلاً، من الضروري التفكير في:

أ. أثر القرار المتخذ على الأطفال.. على الجانب النفسي والتربوي والتعليمي. مثلاً، يجوز للزوج أن يرفع قضية متعلقة بالحضانة ويكسبها، ولكنه في نفس الوقت يجد أن أطفاله مستقرّين نفسياً بشكل كبير مع والدتهم، وأنها قادرة على رعايتهم بنسبة مقبولة، وفي المقابل لن يستطيع هو أن يوفر

(١) الكليني: الكافي، ج ١، ص ٣٤٩.

لهم الجو المناسب بسبب ظروف عمله وكثرة غيابه عن البيت وما إلى ذلك.. فهل تكون تلك الإباحة مسوِّغاً له لكي يطالب بالحضانة؟

ب. أثر القرار على سمعة الأسرة، أو السمعة الشخصية لصاحب المشكلة، لكونه شخصية عامة مثلاً.. فالمجتمع لا يرحم، والناس يحبون تداول القضايا المثيرة، ولا يمنعهم عن ذلك مكانة الشخصية التي يرتبط بها الخبر. وخير شاهد على ذلك ما ذكرته آيات قصة الإفك والتي بحسب كثير من المفسرين تخص شخص النبي «صلى الله عليه وآله» وسمعته: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾^(١).

ج. أثر القرار على مستقبل الفرد، فقد يقلب تنفيذ هذا القرار حياة صاحب القضية رأساً على عقب، فيقضي سنوات وسنوات من عمره في المحاكم، وإنفاق أموال طائلة بما يُرهقه اقتصادياً، فلربما يكون التصالح الودّي والتنازل في البين عن بعض الحقوق أفضل من ذلك.

د. هل الوضع القادم أفضل من الوضع القائم؟ إخوة يختلفون على مبلغ من الإرث، والمبلغ ليس بذئ اعتبار كبير، ويستطيع الإنسان أن يتجاوز عنه في مقابل أن لا يخلق صراعاً ممتداً وخصومة طويلة الأمد مع إخوانه.. فهل جواز استرداد حقّه أولى أم تجاوز الخصومة؟

هـ. مراعاة أيّ المواقف أحب إلى الله؟ فمن المفترض أنّي إنسان مؤمن، وأحبّ أن يكون الله راضياً عني دائماً، وأسعى أن أنال مغفرته وعفوه في الآخرة، وهذا قد يتطلب منّي أن أغفر لخصمي، وأعفو عنه في الدنيا.

و. هل يتناسب هذا الموقف مع الأخلاق والقيم التي أتبنّاها؟ الانتقام، الصراع.... إلخ.

• الحكمة ثم الحكمة :

ولذا لا تتوقف عند حدّ معرفة الجواب الشرعي، ولا تقل عندي فتوى بجواز ذلك، بل طالب العلماء وأهل الاختصاص بالجانب الآخر من الموضوع، وهو الداخل تحت عنوان (الحكمة)، ثم انظر في أمرك، وماذا تختار.

ولنلاحظ كيف أن الآية الكريمة التالية وهي تعالج قضية

اجتماعية لا تكتفي بالبُعد الشرعي من المسألة، بل وتأكد على ضرورة التحلي بالحكمة أيضاً: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنِ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ إذ يجوز للزوج حال العدة الرجعية أن يعيد مطلقاته إلى حالة الزوجية بكلمة واحدة، ولكن هل الحكمة تقتضي ذلك في ما لو لم يرغب هو حقيقةً في إرجاعها وكان الأمر بالنسبة إليه مجرد انتقام؟ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ بأن تحوّلوا الأحكام الشرعية إلى أدوات توظّفونها بما لا يُرضي الله وتتعاملون معها وكأنها ألعوبة بأيديكم ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ التشريعات ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ فهذه التشريعات ليست مسائل تجريدية بل واقع عملي يمس حياة الإنسان والآخرين المرتبطين به وبشكل كبير ﴿يَعْظُمُ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١).

• الإلزام والحد الأدنى:

أحياناً يدفع الحكم الشرعي باتجاه الإلزام.. فعندما يبلغ

الطفل ٧ سنوات - مثلاً - فإن حضانته تكون للأب.. هذا حكم شرعي إلزامي، ولكن يجب أن نلتفت إلى أن الأحكام الشرعية الإلزامية في القضايا ذات البعد الاجتماعي تكون - أحياناً - لبيان الحد الأدنى للحالة المطلوب تحقيقها عند التخاصم، وليست من باب الإلزام ابتداءً. أي أن الشرع الإسلامي يدفع باتجاه تحقيق توافق تصالحي على الترتيبات المتعلقة بحضانة الأطفال وفق مصلحة كل الأطراف، وهذا التوافق التصالحي قد يُبقي حضانة الأطفال للأم، وقد يقسمها - بطريقة ما - بين الأبوين، وقد تنتقل بشكل كامل إلى الأب.. المهم أن نقدّم الحكمة على رغباتنا وأهوائنا الشخصية، ولا نحول المسألة الشرعية إلى أداة للانتقام. ومثل مسألة الحضانة، المسائل المالية، والمسكن، والإرجاع، وعوض الخلع وغير ذلك.

قال «تعالى»: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾^(١).

• توظيف الأحكام الشرعية :

إنَّ من المؤسف أن نشهد - في حالات التخاصم في القضايا الاجتماعية - نوعاً من السعي لاستغلال الأحكام الشرعية لتحقيق مصالح ضيقة، أو لشفاء غيظ، أو انتقاماً للنفس، أو لتوجيه ضربة موجعة إلى الطرف الآخر المتخاصم معه، بينما لم تُشرع هذه الأحكام لتحقيق المصلحة الفردية، بل وُضعت بجانب الحكمة ومراعاة مصالح الآخرين كي يحدّد الفرد من خلالها ما هو القرار الأنسب في مثل هذا الموقف، تخفيفاً على نفسه وعلى الآخرين تبعات العقد المحتمل تشكّلها نتيجة الخصومات والنزاعات، وسداً للباب الذي قد تقتحم عليه من خلاله الكثير من السلبيات الكفيلة بإرباك حياته، ولنجعل من قوله «تعالى»: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١) الأساس في مواقفنا وقراراتنا وردود أفعالنا.



البهتان العملي

نحن نعرف أن البهتان هو نسبة أمر سلبي إلى شخص ما زوراً وبالباطل، بحيث يكون بريئاً منه، وقد جاء في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف ما ينهى عن البهتان ويبين خطورته وآثاره القبيحة، ومن ذلك ما في الحديث النبوي: (مَنْ بهت مؤمناً أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه، أقامه الله «تعالى» يوم القيامة على تلٍّ من نارٍ حتّى يخرج مما قاله فيه)^(١).

إلا أن الآية التالية استعملت هذه الكلمة في مورد يرتبط بالتصرف لا بالكلام... فما علاقة البهتان بذلك؟

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٩٤.

قال «تعالى»: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ أَحَدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا، وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنِ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(١).

• ابتزاز:

الآية تتحدث عن حالة ما لو أراد أحدهم الزواج بالثانية، فإنه ومن أجل أن يؤمن لنفسه مبلغاً من المال يقدمه مهراً للزوجة الجديدة أو لاحتياجات البيت الجديد، فإنه يضغط على الزوجة الأولى إلى درجة التعسف، حتى تطلب الطلاق وتتخلص من إيدائه، فتبذل له المهر الذي أخذته منه، أو تطالبه به كمؤخر صداق.. وهي ليست صورة خيالية افتراضية، بل واقع حقيقي يمارسه البعض إلى هذا اليوم، وقد مرّت بي فعلاً حالة من هذا القبيل.

وهي صورة من صور كثيرة يفقد فيها الإنسان توازنه الأخلاقي وتقواه عند نشوب الخلافات الزوجية، وتحوّل فيها الخصومة إلى فجور فيها، وما أيسر أن تتحوّل الخلافات

الزوجية - للأسف - إلى فجور في الخصومة!

من هنا، تأتي الآية لتنتهي عن هذه الممارسة التعسفية، مُطْلَقَةً على هذه العملية عنوان (البهتان)، على اعتبار أن هذا الأخذ التعسفي هو فعل باطل، وكأنه يُنكر استحقاقها للمهر... فأشبه البهتان القولِي من هذه الناحية.

ومن هنا نقول أن في هذا التصرف بُعْدَيْن، البُعد الأول: البهتان، والبُعد الثاني: أكل المال الحرام... وكل ما جاء من عقوبة تخص هذين العنوانين يترتب هنا.

• إثارة وجدانية وقانونية :

ثم تطرح الآية المسألة في جانبها الإنساني: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ كيف تنسى أيها الزوج الأيام الجميلة والعواطف المتبادلة بينكما؟ أليس في هذا ما يردعك عن مثل هذه التصرفات الجائرة؟

كما تطرحها في جانبها القانوني: ﴿وَأَخْذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾، فالزواج بأركانه، ومنه المهر يمثل ميثاقاً والتزاماً بين طرفين، واللّه «تعالى» قد غلّظ هذا الميثاق، أي لم يجعله سهل الإبطال، بحيث يمكن التخلص منه بسهولة ومن

دون تبعات.. فكيف يحقّ لك - أيّها الزوج- أن تتعدى على الميثاق وتنقض العهد؟

المطلوب من الإنسان في مثل هذه الحالة -إذا شعر بالقوة تجاه إنسان آخر ضعيف- فشجّع ذلك على التجاوز على حقوقه، أن يتذكّر في تلك اللحظة أنّه -في ذات الوقت- إنما يتعامل مع الله «تعالى» القاهر فوق عباده، المهيمن على الأمر كلّ، وأنه عندما يتمرّد على الله ويحاربه، فعليه أن يستعدّ لبلاء الله «تعالى» في الدنيا قبل الآخرة، وإذا أراد به ضرّاً، فمن يكشف عنه ضرّه؟! وإذا أراد أن يبتليه فمن ينقذه من بلائه؟! وهذا معنى ما جاء في الدعاء: (اللهم فكما كرّهت لي أن أظلم، فقني من أن أظلم)^(١).

(١) الصحيفة السجادية: الدعاء ١٤، بعنوان: وكان من دعائه عليه السلام إذا اعتدي عليه أو رأى من الظالمين ما لا يحب.



زوجتي العزيزة

• أَحَبُّكَ^(١)؛

قرأت في أحد الكتب أنّ أتباع كونفوشيوس الفيلسوف الصيني فسّروا لماذا يكره الناس القطط والكلاب، حيث أرجعوا ذلك إلى أنه قد دخلت في جسمك روح قِط، ولذلك فأنت تكره الكلاب، وعكس ذلك صحيح .. أو لماذا تحب إنساناً من أول نظرة؟ السبب أنك أحببته قبل ذلك عندما كانت روحك في جسم آخر... ولماذا تكره إنساناً من أول نظرة؟ السبب أن بينكما حسابات قديمة لم يتم تصفيتها بعد، هذه الحسابات عندما كانت لكما حياة سابقة.

(١) هذا الفصل عبارة عن كُتَيْب صدر سابقاً يحمل عنوان (زوجتي العزيزة)، ولذا تتنوّع موضوعاته.

ومهما كان مثل هذا التفسير مضحكاً عند البعض، ومقنعاً لآخرين، إلا أنني أؤكد لك أنني أحببتك أنتِ أنتِ، زوجتي وحببتي ونصفي الآخر.

أحببتك لأنك قبلت بأن ترتبتي بي ، وتربتي مصيرك بمصيري، وتسلمي نفسك إياي... فما أحلى كلماتك «زَوْجُكَ نفسي».

• المرأة الحديدية :

اعتادت بعض الأمم في الماضي على أن يلجأ الزوج إلى إجبار زوجته على ارتداء لباس داخلي حديدي بحيث يُغلق بقفل ومفتاح، وذلك عندما يسافر بعيداً عن زوجته، وبالطبع فهو يحتفظ بذلك المفتاح معه طوال سفرته المجيدة، ولن تتخلص الزوجة المسكينة من ذلك اللباس الحديدي إلا بعد العودة الميمونة للزوج، وبلا تردد فإن أول ما يقوم به ذلك الزوج تفحص قفل ذلك اللباس لصاحبة الحسن والدلال . وليس من الضروري أن تكون كذلك . للتأكد من أن كل شيء على ما يرام، وعندها يمن عليها صاحب السعادة بتخليصها من ذلك الحرز الغريب...

الغيرة عند الرجل أمر طبيعي تماماً كما هو شعور طبيعي عند المرأة أيضاً، بالطبع ليس إلى حد اللجوء إلى تحويل الزوجة إلى امرأة مقنعة بالحديد على طريقة المحاربين الرومانيين، ولكن بالحد المعتاد والمقبول شرعاً وعقلاً.

بل إنني أتصور أن المرأة التي تشعر بأن زوجها لا يغير عليها، ستشك في حبه لها وتعلقه بها، لأن من أسباب الغيرة عند الإنسان هو العاطفة القوية التي يحملها تجاه الآخر بحيث يخشى عليه من أي شخص، حتى أنه يخشى أن يجذب بشكل طبيعي إلى شخص ثالث، فيبرز ذلك من خلال ردود فعل في الهيئة أو القول أو التصرف تماماً كما يحدث للإنسان الذي يحب شيئاً ويخاف أن يفقده.

وبالتالي، إذا أحسّت الزوجة أن زوجها لا يغار عليها، فهو بالتالي قد لا يحبها أو لا يمانع في أن يفقدها.. وما أعظم المصيبة حينئذ...

نعم لربما تتدخل طريقة المرأة في حركتها في المجتمع وفي طبيعة علاقاتها بالجنس الآخر، فتسهم في تكوين الشعور بالغيرة عند زوجها، خاصة إذا كانت في مستوى

من الجمال بحيث تجذب إليها الأنظار، أو ذات عقل ولباقة وحسن حديث تُجبر الآخرين على احترامها - بل وأكثر من الإحترام حبّتين - أو أنها من اللائي يخضعن بالقول ويتمايلن في المشي ويتزيّن في المظهر.

عندما تكون الغيرة حالة طبيعية يواجه فيها الرجل المسألة على أساس تحصين زوجته بشكل معقول ومدرّوس فإن هذه الغيرة تكون إيماناً، وكما في الحديث النبوي: (إن الله يغار والمؤمن يغار)^(١)، ولكن عندما تتحول الغيرة إلى حالة مرضية وإلى عقدة نفسية فإنها تكون مشكلة لهما وتدميراً لحياتهما الجميلة.

ولذا قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» لابنه الحسن «عليه السلام» كما روي عنه: (إياك والتغاير في غير موضوع غيرة، فإنه يدعو الصحيح منهن إلى السقم، ولكن أحكم أمرهن فإن رأيت عيباً فعجل النكير على الكبير والصغير)^(٢).

(١) الترمذي، السنن، ح ١١٦٨.

(٢) الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٥٣٧.

• أم العقارب:

يحكى أنه كان لأحدهم جارية، وكان شديد الحب لها، ولكنه كان يخاف وصالها هيبة من زوجته وخوفاً من افتضاح أمره، وذات ليلة وبينما كانت زوجته غارقة في لذيق المنام، عرض للزوج الولهان ذكر جاريته الجميلة فنزل من على فراش الزوجية بهدوء تام، يريد حجرة الجارية، إلا أن صاحبنا تعيس الحظ، ما أن وطأت قدمه الأرض حتى سارع إليه عقرب سام، فلدغه لدغة موجهة أجبرته على العودة إلى فراشه متأوهاً متالماً، ولما اكتشفت امرأته ما رام إليه ضحكت بتهكم وقالت:

وداري إذا نام ساكنها تقيم الحدود بها العقرب

إذا رام ذو حاجة غفلةً فإن عقاربها ترقب

من الطبيعي أن تغار الزوجة على زوجها لأن الدافع لذلك - عادة - هو حبها له وخوفها من فقده، ولما سئل الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»: (المرأة تغار على الرجل فتؤذيه؟) قال: (إن ذلك من الحب)^(١).

(١) الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٥٠٦.

وقد يكون الدافع لغيرتها حبها للتملك، وهذا أمر طبيعي أيضاً، فهي تحب أن تملك عاطفته وعقله وجميع شئون حياته، فإذا أحست أنها ستفقد ما تملكه، تحركت غيرتها لمنع حدوث ذلك.

ولربما يدفعها إلى الغيرة أيضاً طبيعة تصرفات زوجها، خصوصاً إذا امتاز بما يجذب النساء إليه من ذكاء أو وسامة أو خلق جميل وما إلى ذلك، أو كان من النوع الذي يعيش نزوات معينة تجاه النساء «يعني بتاع نسوان».

ولذا عندما تغار الزوجة فهذا أمر مفهوم ما دامت المسألة لم تتجاوز الحد المعقول والمقبول، كما أن الإسلام لا يتدخل في الحالات النفسية للمرأة، فالمرأة بطبيعتها لا ترتاح إذا تزوج زوجها بامرأة أخرى، ولكن إذا أدت هذه الغيرة إلى تطرف في الاتجاه الحاد بحيث تترك المرأة لتواجه المسألة على أساس تحريم ما أحله الله، أو أن تلحق به الأذى، أو تتمرد عليه بالنشوز، أو تجرح كرامته بتهديده «إن أنت فعلت كذا، فتوقع مني مثل ذلك» فإن ذلك لن يكون مقبولاً شرعاً وعقلاً وعرفاً.

ولربما إلى هذا أشار الإمام علي «عليه السلام» بقوله

(غيرة المرأة كفر)^(١) على أساس أنها تؤدي إلى أجواء الكفر بمثل تحريم ما أحله الله، لأنها قد تتصرف في مشاعرها السلبية إزاء شكها بأن زوجها قد يتزوج بامرأة أخرى، فتتصرف وكان الأمر حرام، أو أن زوجها قد فعل فاحشة والعياذ بالله، مما يجعل الأمر يبدو بمثابة الاعتراض على التشريع الإلهي من باب أنه ظلم بها وما إلى ذلك.

حبيبتي .. غيرتك علي تشعرني بنشوة الحب، ولكن لا بد أن تكون غيرة هادئة عاقلة متوازنة، وبعيدة عن وساوس الشيطان. إن لك ان تربحي قلبي، لا بالأساليب الضاغطة الحادة، بل بالكلمة الطيبة وبالمعاشرة الطيبة، لأن الله «تعالى» يقول ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ «سورة الإسراء: ٥٣».

وبالمناسبة يقال أن الحلوى المصرية المشهورة باسم «أم علي» منسوبة إلى «أم علي» زوجة السلطان «إيبك التركماني» الذي تزوجته «شجرة الدر» ثم قتلته لاحقاً. ولكن الزوجة الأولى «أم علي» قد تأمرت على شجرة الدر

(١) الشريف الرضي: نهج البلاغة: الحكمة ١٢١.

بعد ذلك غيرة منها وقتلتها بالقباقيب في حمامها.

وابتهاجاً بهذا النص دعت الناس وقدمت لهم الفته باللبن والسكر، وسُمِّي هذا الطعام «أم علي» وقد وضعت أم علي في هذه الفته خصلة من شعر المأسوف على شبابها «شجرة الدر»، لذلك كان من المألوف إذا وجدت ربة البيت شعراً في «أم علي» قالت: إنه شعر شجرة الدر!

• أبيض .. أسود :

• جاء رجل إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» فقال: (إن لي زوجة إذا دخلت تلتقتني، وإذا خرجت شيعتني، وإذا رأنتي مهموماً قالت: ما بهمك، إن كنت تهتم لرزقك فقد تكفل به غيرك، وإن كنت تهتم بأمر آخرتك فزادك الله همماً، فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: إن لله «عز وجل» عمالاً، وهذه من عماله، لها نصف أجر الشهيد)^(١).

• عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام»: (ما أعطي أحد شيئاً خيراً من امرأة صالحة، إذا رآها سرته، وإذا غاب عنها حفظته)^(٢).

(١) الطبرسي: مكارم الأخلاق، ص ٢٠٠.

(٢) البروجردي: جامع أحاديث الشيعة، ج ٢٥، ص ١٦٢.

• عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»: (خير نسائكُم التي إذا خلت مع زوجها خلعت له درع الحياء) (١).

• عن الإمام موسى الكاظم «عليه السلام»: (جهاد المرأة حُسْنُ التَّبَعْلِ) (٢).

• عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»: (أَيُّمَا امْرَأَةٍ بَاتَتْ وَزَوْجَهَا عَلَيْهَا سَاخِطٌ مِنْ حَقٍّ لَمْ يَقْبَلْ مِنْهَا صَلَاةٌ حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا) (٣).

• وعنه «عليه السلام»: (أَيُّمَا امْرَأَةٍ قَالَتْ لَزَوْجَهَا: مَا رَأَيْتُ مِنْ وَجْهِكَ خَيْرًا، فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهَا) (٤).

• عن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»: (أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا الطَّلَاقَ مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ) (٥).

• سألت امرأة النبي «صلى الله عليه وآله»: (إِنْ لِي

(١) الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٣٢٤.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج ١٨، ص ٣٣٢.

(٣) الطبرسي: مكارم الأخلاق، ص ٢١٥.

(٤) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٦٢.

(٥) سنن أبي داود، ح ٢٢٢٦.

زوجاً وبه عليّ غلظة، وإنّي صنعت شيئاً) سحر (لأعطفه عليّ. فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: أف لك، كدّرت البحار وكدّرت الطين، ولعنتك الملائكة الأخيار وملائكة السماوات والأرض)^(١).

• لبن الحمارة:

اعتاد الصينيون القدماء إبقاء البنت في عزلة شديدة عن خطيبها حتى تُزَف إليه، فلم يكن الزوج المرتقب قادراً على رؤيتها إلا إذا احتال على ذلك احتيالاً. وكانت حفلة الزفاف ذات طقوس غريبة ومعقدة أهم ما فيها أن يحتسي العريس من الخمر ما يكفي لأن يزيل ما لديه من عقل مخافة أن يكشف قبح زوجة المستقبل حين يرفع النقاب عن وجهها أمام الناس، فتكون الكارثة...

ويقال أن ملكة إحدى البلاد لما زفت إلى عريسها ملك البلدة الأخرى، أشار عليها الأطباء بعلاج لبشرتها الجافة الخشنة... ولتكون هذه البشرة ناعمة ليّنة، نصحوها بأن تستحم يومياً في لبن «حمارة»، ثم في لبن ماعز، وأن تضيف

(١) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ٢، ص ١٢٦٨.

إلى هذا المزيج اللبني شيئاً من العطر، ولما وصلت العروس إلى بلد العريس أقفلت قصرها عليها أياماً.

ولم يفهم الملك سرّ ذلك، ولا أحد.. ثم عرف فيما بعد أنها حشدت أطباءها وعواجيزها يسهرون ليلاً ونهاراً على جمالها وزينتها، ولم يفعلوا إلا شيئاً واحداً، راحوا يدلكون بشرتها بكل أنواع اللبن والدهون والعنبر... حتى إذا انتهت تلك المعالجات، خرجت العروس من قصرها لامعة شابة مع أن صفرتها لم تكن سوى بسبب إصابتها بمرض الكبد!

وهكذا هم الرجال يحبون رؤية المرأة جميلة أنيقة زاهية وبكامل حلتها وزينتها، وكما وصفها ذلك «الغطفاني» إذ قال: «ملساء القدمين، ردماء الكعبين، ناعمة الساقين، ضخماء الركبتين، لفاء الفخذين، ضخمة الذراعين، رخصة الكفين، حمراء الخدين، كحلأ العينين، زجاء الحاجبين، لمياء الشفتين، بلجاء الجبين، شماء العرنين، شنباء الثغر، محلوكة الشعر، غيداء العنق مكسرة البطن.....». وبصراحة لم أفهم كثيراً مما قال.

وأكون صادقاً إن قلت بأنه لا يوجد رجل في العالم كله

قد حصل على زوجة تتوافر فيها كل الصفات الجمالية الجسدية التي كان يحلم بها.

وهنا يأتي دور الزينة والتجمل، والذي برز بوضوح في بعض النصوص الدينية من خلال حثّ الزوجة على التزين والتطيب لزوجها، فعن الإمام محمد الباقر «عليه السلام»: (لا ينبغي للمرأة أن تعطل نفسها، ولو أن تعلق في عنقها قلادة، ولا ينبغي أن تدع يدها من الخضاب ولو أن تمسحها مسحاً بالحناء، وإن كانت مَسَّةً)^(١).

والطريف في الأمر أن الزوج الأعمى لم يُستثنَ من ذلك في مجموعة الأحاديث الشريفة، فقد سئل رسول الله «صلى الله عليه وآله»: (ما زينة المرأة للأعمى؟ قال: الطيب والخضاب، فإنه من طيب النسمة)^(٢)، مما يؤكد على أهمية التجمل واستخدام عنصر الجذب للحواس المختلفة في كسب قلب الحبيب وإن كان أعمى.

وما أروعكِ أنتِ - زوجتي وحبّيتي - حين تتزيّنين وتطيّبين وترتدين جميل الثياب، لا أعني بالطبع أنكِ

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٦٧.

(٢) الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٥٦٤.

قبيحة - لا سمح الله - من دون ذلك، بل إن التزين والتطيب
يضيفان جمالاً إلى جمالك، ويعكسان أناقتك وذوقك،
ويوحيان إلى زوجك اهتمامك به وبنفسك، وسعيك لإرضائه
وكسب وده.

فلا تبخلي عليه بقليل من ذلك، خصوصاً عند دخوله
المنزل حيث يجدرك تستقبلينه بابتسامتك المعهودة
وحضنك الحنون.

• مديرة أم خادمة؟

قرأت هذا المقطع من كتاب «ماذا تفعل امرأة ذكية مثلك
في المنزل؟» للكاتبة «جانيت ديتمر»، وأحب أن تشاركيني
القراءة، تقول الكاتبة: خلال فترة الطفولة كنت وصديقاتي
نحلم بأن تكون لكل واحدة منّا خادمة، ولم نفكر مطلقاً في
أن نؤدي دورها، والسبب واضح؛ لأننا لم نكن نرغب في
عمل كئيب ومتكرر ومحتقر، علاوة على أن عائدته قليل رغم
صعوبته.

بعد أن رزقتُ بالأطفال وجدت نفسي أقوم بدور الخادمة،
إذ أقوم بالتقاط ملابسهم ولعبهم وكتبتهم وأحذيتهم وغيرها

من الأرض، وتتكرر هذه العملية عدّة مرات في اليوم، كما أتقبّل الأوامر من أطفالي، أحدهم يأمرني بإحضار كأس من الحليب، والآخر يأمرني بإحضار لعبة، وغير ذلك من طلبات الأطفال التي لا تنتهي، وفعلاً شعرتُ بأنني الخادمة بينما جميع أفراد الأسرة يتمتعون بحياتهم.

والآن قررتُ أن أترك القيام بدور الخادمة وأقوم بدور المديرية. المديرون محترمون؛ وذلك لأنّ طبيعة أعمالهم تتطلب توفير المسؤولية والقدرات والمهارات، علاوة على أنّ لديهم المقدرة على جعل الأعمال اليومية بالمؤسسة تحقق أهدافها، كما يقومون بالتخطيط لإنجاز مهامهم. كما أنّ المديرين يجعلون كل فرد في العمل يشعر بأهميته وقيّمته، ويشجّعونه على العمل مع زملائه لتحقيق أهداف المجموعة.

لم يكن تحوّلي من خادمة إلى مديرة سهلاً؛ وذلك لأنّ الأمر تطلّب إقناع نفسي أولاً بهذا التحوّل؛ وذلك لأنّه كان يراودني التفكير في الاستمرار في القيام بدور الخادمة بدلاً من الدخول في مهمة جديدة تطلّب تعليم الأطفال وتدريبهم على القيام بالأعمال المنزلية؛ لأنّ قيامي بها يعني إنجازها بسرعة وبصورة أفضل، وبدون أيّ تدمرٍ من أفراد الأسرة،

ولكن كمديرة فإنَّ الأمر يتطلَّب مشاركة الآخرين، وهذا يعني تعاون أفراد الأسرة وتحملهم للمسؤولية...

وكمديرة كانت أسرتي تشغل اهتمامي الأول، وكنت أرغب في أن يعرف أفراد أسرتي بأنني عندما أطبخ أو أغسل الملابس أو أجعل المنزل نظيفاً، فإنَّني أرمي إلى جعل المنزل بيئة طيِّبة صالحة للحياة الكريمة، وعليهم المساعدة بالأعمال المنزلية، ليس بهدف إرضاء والدتهم وطاعتها فحسب.. وإنَّما للفائدة المتمثلة في جعل البيت أكثر راحة للجميع.

عندما قمت بدور الخادمة كان أطفالي يأمروني بما يأمرون به الخادمة، وحينما قمت بدور المديرة كانوا يعاملونني باحترام؛ لإبداعي في عملي. كان أطفالي يرحِّبون بوجودي في مكان الخادمة، إلا أنَّهم أصبحوا في غاية السعادة لإرشاداتي وتعليماتي عندما قمت بدور المديرة، وأنا كذلك مغتبطة لاختياري دور المديرة بدلاً عن دور الخادمة. فمن الأفضل إنجاز عمل يتطلب الأداء الجماعي والتعاون والاحترام المشترك بين أفراد الأسرة.

وعندما كنت أقوم بدور الخادمة في المنزل كان الناس مصدر مشكلتي، بيد أنه عندما قمت بدور المديرة - الذي كان يتضمن توجيه أفراد أسرتي وتشجيعهم على العمل بتجانس - أصبح الناس هدفي.

انتهى كلام الكاتبة صاحبة التجربة، وأعتقد أنك توافقيني الرأي - يا حبيبتي - أنها تجربة جديرة بالأخذ بعين الاعتبار، وإن كنت لا أتفق معها بأن الزوجة إن عملت داخل إطار المنزل في المطبخ والغسيل فإنها ستتحول إلى خادمة، تحت أي ظرف، إلا أن هذه النظرة قد تتبناها بعض الزوجات مما يدفعهن لاستكاف العمل بالمنزل، في الوقت الذي ينبغي لهن أن يدركن أن عملهن في المنزل هو نوع إدارة وفن - كما أسمتها الكاتبة - وإدارة من نوع متميز وذات تأثير عظيم عليها وعلى أسرتها وعلى المجتمع.

• وصفة سحرية :

الطريقة التي تتبعها الزوجة في مواجهة الخلافات والمشاكل تعتبر عاملاً هاماً في القضاء عليها أو تجاوزها.. أو على العكس في تضخيمها وتوسيع نطاقها.

إذ أن للكلمات الحادة، والعبارات العنيفة، صدى يتردد باستمرار حتى بعد انتهاء الخلاف، علاوة على الصدمات والجروح العاطفية التي تتركها تتراكم في النفوس .

وبالمقابل فإن التزام السكوت أمام هذه الخلافات قد يؤدي الى تخفيف حدة النزاع أو تجنبه أحيانا، ولكن لا يدوم الحال هكذا طويلاً، حيث يتم تأجيل الخلافات لبعض الوقت وسرعان ما يشتعل البركان من جديد عند أدنى تصادم.

كما أن لأسلوب التهكم والسخرية، أو الإنكار والرفض أو اللامبالاة والتعالي أثراً سلبياً على المشكلة كواضع الملح على الجرح. ولاشك أن ذلك كله يثير القلق عند الزوجة ويبعث على الشعور بالكآبة والانزعاج. ولكن بإمكان الزوجة أن تتجاوز ذلك كله، وبقليل من الحنكة وسعة الصدر والرغبة الصادقة، وذلك من خلال اتباع الخطوات التالية:

تذكّري أن المردود السلبي لمثل هذه النزاعات والمشكلات ستعود عليك أنت كما تعود علي أنا. فإن تخلصت منها عاجلاً عجلت في تحقيق الراحة لك أنت أولاً. وتذكّري النقاط الإيجابية في حياتك الزوجية - وما أكثرها - ليكون

ذلك دافعا لك للمبادرة في تجاوز المشكلة وإصلاح الخلل، بعيداً عن الأنانية المدمرة والكبر الزائف والتعالي الممقوت، حتى لو كنتِ على يقين بأنني أنا من خلق المشكلة.

أبدي لي استعدادك لإصلاح الخلل إن كنت أرى أنك أنت المقصرة، ولا تحاولي أن تواجهيني بأخطائي بكلمات حادة، بل اتركي ذلك لوقت آخر حين تهدأ النفوس، وبيّني لي حينها أخطائي بكلمات مناسبة وأسلوب مقنع.

اسعي لإصلاح مواطن الخلل عندك أو تلك الصفات التي لا أحب أن أراها فيك. وأظهري لي ذلك ما استطعتِ.

أضفي أجواء إيجابية على البيت بعد حدوث أية مشكلة، أعدّي وجبة لذيذة وتزيّني وتطيّبي واهمسي في أذني: «حبيبي سامحني».

عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»: (خَيْرُ نِسَائِكُمُ الَّتِي إِنْ غَضِبْتَ أَوْ أَغْضَبْتَ قَالَتْ لِرَوْحِهَا: يَدِي فِي يَدِكَ لَا أَكْتَحِلُ بِغَمَضٍ) لَنْ أَذُوقَ الْمَنَامَ (حتى ترضى عني) (١).

وعنه «عليه السلام»: (مَنْ كَظَمَ غِيظاً وَلَوْ شَاءَ أَنْ يَمْضِيَهُ أَمْضَاهُ، مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رِضَاهُ) ^(١).

وعن النبي «صلى الله عليه وآله»: (أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى خَيْرِ أَخْلَاقِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟ تَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَكَ وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ) ^(٢).

• كلمات من نور:

• عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»: (إِنَّ امْرَأَةً أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ «صلى الله عليه وآله» لِبَعْضِ الْحَاجَةِ فَقَالَ لَهَا: لَعَلَّكَ مِنَ الْمُسَوِّفَاتِ. قَالَتْ: وَمَا الْمُسَوِّفَاتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْمَرْأَةُ الَّتِي يَدْعُوهَا زَوْجُهَا لِبَعْضِ الْحَاجَةِ فَلَا تَزَالُ تَسَوِّفُهُ حَتَّى يَنْعَسَ زَوْجُهَا فَيَنَامَ. فَتَلْكَ الَّتِي لَا تَزَالُ الْمَلَائِكَةُ يَلْعَنُهَا حَتَّى يَسْتَيْقِظَ زَوْجُهَا) ^(٣).

• عن الإمام محمد بن علي الباقر «عليه السلام» قال: (قَالَ رَسُولُ اللَّهِ «صلى الله عليه وآله» لِلنِّسَاءِ: لَا تَطُولَنَّ

(١) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ٣، ص ٢٢٦٧.

(٢) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ١، ص ٨٤٧.

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة، كتاب النكاح باب ٨٣ من مقدمات النكاح، ح ٢.

صلاتكن لتمنعن أزواجكن^(١).

• عن النبي «صلى الله عليه وآله»: (لا يحل لامرأة أن تنام حتى تعرض نفسها على زوجها، تخلع ثيابها وتدخل معه في لحافه فتلرز جلدها بجلده، فإذا فعلت ذلك فقد عرضت)^(٢).

• أعوذ بالله :

عن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»: (ألا أخبركم بشرار نسائكم؟ الذليلة في أهلها العزيز مع بعلمها، الحقود التي لا تتورع من قبيح، المتبرجة إذا غاب عنها بعلمها، الحصان معه إذا حضر، لا تسمع قوله، ولا تطيع أمره، وإذا خلا بها بعلمها تمنعت كما تمنع الصعبة - الفرس المتمنعة والمعاندة - عن ركوبها، ولا تقبل منه عذرا ولا تغفر له ذنباً)^(٣).

الزوجة الذكية والحريصة على بيتها وحياتها الزوجية

(١) البروجردي: جامع أحاديث الشيعة، ج ٢٠، ص ٢٢٦.

(٢) البروجردي: جامع أحاديث الشيعة، ج ٢٠، ص ٢٢.

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٢.

- وأنتِ كذلك - ترقب الصفات السلبية التي ينزعج منها الزوج، وتور الأجواء، وتحطم أواصر المحبة والمودة، ثم تسعى لتجنيب نفسها وبيتها من ويلات المشكلات الناجمة عن تكرار ما يترتب على تلك الصفات.

والزوج الفطن الحريص على تماسك أسرته والمحب لشريكة حياته يساهم في جلاء الصورة ووضوحها، ويضع النقاط على الحروف مساهمة منه في تحقيق أجواء هادئة قدر الإمكان وتقليل حالات الخلاف والنزاع بين الزوجين.

ولذا فإنني أتقدم إليك - حبيبتي بقائمة من الصفات السلبية التي لا يحبها الرجل في المرأة:

• الزوجة المسيطرة: التي تلغي وجود زوجها وتنازعه شئون إدارة المنزل دون تفاهم بينهما وبلا مراعاة لقوامية الرجل في تركيبة الأسرة السليمة ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾^(١) فبدلاً من أن نجد في البيت «سي السيّد» سنجد «سي السّت».

• الزوجة الكذوبة: التي تعشق الكذب ولا ينفك لسانها

عن اختلاق الأحداث والافتراء على هذا وذاك ولربما يكون خوفاً من فقدانها لزوجها، أو تجنباً لغضبه عليها، وهذه السمة تؤدي غالباً على تدمير الثقة بينهما، مما يعني فقدان ركيزة أساسية في استمرار الحياة الزوجية، أو استمرارها بصورة طبيعية على أقل تقدير.

• الزوجة الشرسة: ذات الطبيعة العدوانية التي ما ينفك لسانها عن الهجوم، وصوتها عن التعالي كلما أبدى الزوج ملاحظة هنا أو هناك.

وقد يرضخ الزوج بمرور الوقت ويستسلم لأسلوبها «لأنه لم يذبح القطعة أمامها ليلة الزفاف». كما قد تتحول الحياة الزوجية إلى مسرح «لأم المعارك».

• الزوجة النكدية: التي تعيش النظرة السوداوية لكل شئ حولها، وتبحث دائماً عن السلبيات في حياتها، وتحول السلبيات التافهة إلى أمر عظيم وخطب جسيم، ثم تتن من نكد الحياة وهموم الزواج وتعاसे الحظ، فلا يجد زوجها المسكين إلا أن ينفذ بجلده بعيداً عن البيت.

• الزوجة الانعزالية: التي تبتعد عن كل الأمور الخاصة

بزوجها ولا تهتم إلا بشؤونها ورغباتها، وتجد كل اللذة في الابتعاد عن زوجها والاختلاء بنفسها، دون أن تشاركه همومه وأفكاره وآماله وآلامه.

• الزوجة السلبية: التي تترك كل التصرفات لزوجها، فلا رأي لها ولا محاولة للتفكير ولا سعي للإشارة، ويقتصر دورها على التنفيذ، الأمر الذي يوحى إلى زوجها بأنه قد قرن حياته بامرأة لا تمتلك عقلاً تفكر به، ولا قلباً تتفاعل من خلاله، فهي لا تتعدى أن تكون كـ «الروبوت».

• الزوجة العنيدة: «أم راس يابس» لا لشيء سوى العناد، بل وتجد المتعة في الإصرار على رأيها ومخالفة زوجها في كل شئ مهما بدا لها خطأ رأيها. لماذا؟ لأنهم قالوا لها: «أثبتي ذاتك أمام زوجك وإياك أن تستسلمي له».. فتصورت المسكينة أن أقصر الطرق لتحقيق ذلك هو العناد.

• الزوجة الروتينية: فالיום بالنسبة لها كالأمس، وغدا كسابقه، كل شئ يسير برتابة، لأن غاية ما كانت ترجوه في مسيرتها في الحياة هو أن تجد زوجاً يستر عليها «ظل راجل ولا ظل حيط» وقد تحقق ذلك.. فماذا بعد؟

• الزوجة المدللة «الدلوعة»: التي اعتادت على الدلال في بيت أهلها فكل أوامرها مطاعة، وكل رغباتها منفذة، والجميع رهن إشارتها. حتى إذا انتقلت إلى بيت الزوجية حاملة بأن كل أيامها شهر عسل، وسفر في سفر، ومن مطعم إلى مطعم، ومتجر إلى متجر.. اكتشفت حقيقة المر وحجم المسؤولية التي تنتظرها فاصطدمت بالواقع الذي لا تتحمله.

وما ألطف وصف الأعرابي - الخبير بالنساء كما جاء في الخبر - حين سئل عن شر النساء فقال: «شرهن النحيفة الجسم، القليلة اللحم، المحياض الممراض، العسرة الميشومة، السلطة البطرة، النفرة السريعة الوثبة، كأن لسانها حربة، تضحك من غير عجب، وتبكي من غير سبب، وتدعو على زوجها بالحرب، أنف في السماء و في الماء، عرقوبها حديد، منتفخة الوريد، كلامها وعيد، وصوتها شديد. تدفن الحسنات وتفضي السيئات، تعين الزمان على زوجها ولا تعين بعلمها على الزمان، ليس في قلبها عليه رافة، ولا عليها منه مخافة، إن دخل خرجت، وإن خرج دخلت، وإن ضحك بكت، وإن بكى ضحكت، كثيرة الدعاء قليل الإرعاء، تأكل لماً، وتوسع ذماً، ضيقة الباع، مهتوكة القناع، صبيها

مهزول، وبيتها مزبول، إذا حدثت تشير بالأصابع، وتبكي في
المجامع، بادية من حجابها، نبّاحة عند بابها، تبكي وهي
ظالمة، وتشهد وهي غائبة، وقد دلى لسانها بالزور وسال
دمعها بالفجور، ابتلاها الله بالويل والثبور وعظائم الأمور»
يا ستار!! وأغلب الظن أن الأعرابي المسكين كان من ضحايا
مَن وصَف.. بل يُقال أن عروسه لما سمعت تلك الآيات
الشعرية راحت تصرخ وتلطم خديها حتى تجمعت جاراتها
ورحن يضربنه حتى مات! مع أنه لم يقل إلا الحقيقة...

• الزوجة المفتّحة:

اعتادت طائفة من الهندوس أن تلحق مصير الزوجة
بزوجها المتوفى، حيث توضع معه على لوح من الخشب
وتحيط بهما الأعواد، ثم تشعل النيران بهما، إلى أن يموتا
معاً أما هو فلا أنه مات سلفاً، وأما هي فتُحرق حية لتلحق به.
والغريب في الأمر أن قبيلة «كاثي» التي كانت تسكن
البنجاب تُبرّر فعلتها الشنيعة تلك حتى لا تدسّ زوجة
لزوجها السم فتقتله، فهو إن مات - تحت أي ظرف - سيكون
مصيرها الحرق حية!

والحقيقة أنّ من أشدّ المشكلات التي تواجه الأسرة وتسبب لها متاعب كثيرة هي انعدام الثقة بين الزوجين، سواء على مستوى الشك في وجود علاقة للزوج مع امرأة أخرى أو رغبة الزوجة في التخلص من حياتها الزوجية بهدف الارتباط بشخص آخر معين، أو الشك في حب الزوج لزوجته، أو أن تصرفات الزوج الأخيرة تتم عن سوء قصد منه للتأثر منها أو لإهانتها وما إلى ذلك، وكلها تصب في النهاية في سوء الظن أحادي الاتجاه أو المتبادل بين الطرفين، مما يعني انعدام الثقة بينهما، وبالتالي انهدام ركن من أركان الحياة الزوجية.

وتنعكس حالة انعدام الثقة في تصرف الزوج أو الزوجة أو كليهما من خلال التجسس من حين لآخر والمراقبة الدائمة والتفتيش في خصوصيات الطرف الآخر، وربما يفاجئ أحدهما الآخر في مكان تواجهه على غير المعتاد بحثاً عما يؤكد له ظنونه.

ومما يساهم في انعدام الثقة بين الزوجين الكذب والمداراة - كتمان الأمور وعدم التشاور - إفساح المجال لذوي النفوس الضعيفة والوشاة للإفساد بين الطرفين -

ضعف العلاقة التي تربط بين الزوجين . التصرفات غير المبررة الصادرة من أحدهما تجاه الآخر وما إلى ذلك.

صحيح أن الزوجة «المفتحة» خير من تلك «النايمة على ودانها» باعتبار أن الثقة لا تعني الغفلة بل الاطمئنان الواعي، إلا أن هناك فرقاً يا حبيبتي بين «التفتح» وسوء الظن، لأن الأول ناشئ عن الوعي وحسن التدبير، وأما الآخر فحماسة وقلّة عقل!

• فلاشات :

• احرصى على الاستماع إليّ إذا تحدثت، ولا تسخري من كلامي مهما كان رأيك مخالفاً لرأيي، ولا تكثري مقاطعتي في أثناء حديثي.

• لا توجّهى نقدك لملابسي ومأكلي وتصرفاتي بصورة مباشرة أو عنيفة أو سافرة، بل اقترحي ولمحي بالتدريج. هدئي من روعك، وتوقفي عن القلق والتوتر وفكري بروية كيف تصلحين شئون بيتك.

• صارحيني وقولي لي كل ما تريدين، بشرط أن يكون ذلك بطريقة مناسبة وفي وقت مناسب. أخبريني بهدوء

أنك تودين قضاء الإجازة خارج البلد، أو أنك بحاجة لبعض قطع الأثاث للمنزل وهكذا.

• اقبلي هداياي مهما كانت بسيطة أو دون المتوقع، وحتى لو كانت جسدية بالمعاونة في انجاز عمل في المطبخ أو تنظيف الصالة، وعبري عن تقديرك لذلك بكلمات جميلة وإن قلت أو بقبلة صادقة معبرة عن الامتنان، مصحوبة بابتسامة عذبة أقرأ فيها كتباً من الشكر والتقدير.

• لا تحاسبيني على تأخري خارج المنزل، بل حاولي لاحقاً أن تكتشفي سبب ذلك بأسلوب هادئ ومن باب الحرص والقلق، لا بداعي المحاسبة والتوبيخ.

• تجنبني ذكر مساوئ بدرت من أهلي ما استطعت، لأن ذلك يؤذيني، ولا تظهرني الانزعاج والحزن كلما عدنا من زيارة لهم، فإن ذلك يوحى إليّ بأنك وإياهم على خلاف، وأنك تخيريني إما أنت أو هم.

• بادريني بكلمات الحب والوله، واختاري من التعابير أقربها إلى قلبي وأشدّها تأثيراً عليّ.

• لا تخلطي أحاديث الحب والذكريات والأحاسيس

المرهفة بطلبات المنزل وهموم المطبخ ومشكلات الشغالة،
فلكل مقام مقال.

• الوصايا العشر:

يقال أنه لما خطب «عمرو بن حجر الكندي» إلى «عوف بن محلم الشيباني» ابنته «أم إياس» وأجابه إلى ذلك، أقبلت عليها أمها ليلة دخوله بها توصيها، فكان مما أوصتها به أن قالت: أي بنيّة إنك مفارقة بيتك الذي منه خرجت، وعيشك الذي منه درجت إلي رجل لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أمة ليكون لك عبداً، واحفظي له خصالاً عشرًا يكن لك ذخراً:

فأما الأولى والثانية: فالرضا بالقناعة وحسن السمع له والطاعة.

وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا أطيب الريح. وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت طعامه ومنامه، فإن شدة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثامنة: فالإحراز لماله، والإرعاء على

حشمه وعياله، فالأولى من حسن التقدير والثانية من حسن التدبير.

وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصي له أمراً ولا تفشي له سر، فإن خالفت أمره أو غرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره. وإياك ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً، والكآبة لديه إذا كان فرحاً.

صح لسانك يا أم «أم إياس».

• بحق حبي لك:

لا يترتب على الزواج تحمّل الزوج أو الزوجة أية مسؤوليات قانونية أو شرعية تجاه أهل الطرف الآخر.

ولكن بما أن ارتباط الزوج بأهله وارتباط الزوجة بأهلها امر طبيعي، فإن تدخل أي طرف لفصل شريكه عن أهله، يشكل سبباً في تعقيد العلاقة بين الزوج والزوجة، إذ أنه يحمل الطرف المتضرر من الانفصال - وهم الأهل عادة - إلى الثأر لنفسه بأساليب قد تؤذي علاقة الزوجين في ما بينهما. لذلك، فإنّ الحالة السليمة هي أن يعتبر كل طرف منهما جزءاً من مجتمع شريكه، بحيث يصبح الزوج جزءاً من

عائلة أهل الزوجة، وتصبح الزوجة جزء من عائلة الزوج.
 حبيبتي... إن احترامك لأهلي احترام لي، وتقديرك لهم
 تقدير لي، وحبك إياهم حب لي.
 فأحبهم لحبي، وتجاوزي عن أية كلمة أو تصرف بدرت
 منهم قد تكون جرحتك أو أذتك، فأنت شريكة حياتي، وهم
 أهل وعشيرتي، وأمركم جميعاً يهمني.
 قيل للإمام علي «عليه السلام»: (صف لنا العاقل).
 فقال: (هو الذي يضع الشيء مواضعه) (١).

• مسائل فقهية :

• يجوز للزوج أن يستمتع بزوجه بجميع الاستمتاعات
 التي يرغبانها. وكما يجوز الاستمتاع بها عن قرب بالمباشرة،
 فإنه يجوز الاستمتاع بها عن بعد بمثل النظر إليها بشهوة
 أو بمحادثتها بالهاتف والتلذذ بسماع صوتها. نعم يحرم
 الاستمتاع في الحالات التالية:

- في حال إحرامها أو إحرام أحدهما للحج أو للعمرة.

- في حالتي الحيض أو النفاس «خاص بالجماع».

- أثناء الصيام «الجماع والاستمناء».

- أثناء الاعتكاف.

• يجب على الزوجة أن تفي لزوجها بحقه في الاستمتاع بالنحو المذكور سابقا، حتى لو كانت غير راغبة في الاستمتاع حين رغبته فيه، نعم لو شرطت عليه عدم تمكينه من نفسها، أو منعها من ذلك المرض، أو أن زوجها لا ينفق عليها مع قدرته على ذلك، أو أن يكون ما يريده منها من الاستمتاع غير مألوف، فإن لها حينئذ أن تمتنع عن ذلك وفق الشروط المفصلة التي ذكرها الفقهاء في كتبهم.

• لو تمردت الزوجة على زوجها ومنعته حقه في الاستمتاع عامدة عالمة، أثمت وكان للزوج أن يعالج نشوزها بعدة طرق:
الأول: أن يسلك طريق الأخلاق الفاضلة فيتحدى بالصبر والأناة ويعالج تمردها بالموعظة الحسنة والمداواة ويوثق فيما بينه وبينها ما وهن من أسباب المودة.

الثاني: أن يعظها فيخوفها المعصية ويحذرهما العقاب ويأمرها بتقوى الله «تعالى»، وينبغي له أن يكرر ذلك وينوع

أساليبه، بل ويستعين بغيره من أهل المعرفة والعلم ممن يمكنه التأثير فيها، فيصبر عليها في ذلك حتى يئأس من تأثرها.

الثالث: أن يهجرها فيدع مضاجعتها، بأن ينام في غرفة غير غرفتها، أو ينام في غرفتها لكنه يدير لها ظهره فلا يعبأ بها، ويجب في بعض الحالات أن يكون ذلك بعد اليأس من ارتداعها بالموعظة.

الرابع: أن يضربها، وهو خيار غير لازم، ولكن إن أراد اللجوء إليه فلا بد من مراعاة مجموعة من الشروط ذكرها الفقهاء مفصلاً في كتبهم، كشرط أن لا يوجب الضرب احمرار الجلد وأن يكون الدافع الإصلاح لا الانتقام .. إلخ.

• لابد للزوجة من مراعاة أمرين، وذلك من باب المقدمة لتحقيق التمكين من قبلها لاستمتاع زوجها بها:

أولاً: أن يجدها إلى جواره حيث يريد، فلا يجوز لها الخروج من بيته في الأوقات والحالات التي يرغب بوجودها إلى جانبه، ولو لم يكن يريد جنسياً، كأوقات راحته وعطلته ومبتيته، إلا أن يأذن لها بمفارقتها، وهو ما يصطلح

عليه فقها « الخروج المنافي لحق الاستمتاع » وأما لو لم يكن خروجها منافيا لذلك كما لو كان خارج المنزل أو منصرفا عنها في شئونه الخاصة، فالأحوط وجوباً لها حينذاك أن تستأذنه أيضاً.

ثانياً: أن لا يظهر منها من الأعمال أو الأقوال بل ولا يظهر على ملامحها وهيئتها ما يوجب نفور الزوج منها وانصرافه عنها، بحيث تكون تلك المنفّرات نوعاً من الامتناع غير المباشر من قبل الزوجة من تمكين نفسها.

• ملاحظة: يختلف بعض الفقهاء في تفاصيل المسائل الفقهية السابقة، لذا يرجى مراعاة ذلك.



زوجي العزيز

• تذكّر أنني جميلة^(١)؛

كيف كنت تتخيل زوجة المستقبل قبل أن ترتبط بي؟ إن لم يخب ظني فقد سطرت للسيدة والدتك بعض الكلمات من قصص «ألف ليلة وليلة» وكتبتها على ورقة، ثم قدمتها تاركا لها حرية الاختيار، فكانت قبل أن تطرق باب أي بيت تخرج الورقة لتقرأها من جديد، ثم تحاول أن تطابق ما فيها مع بنت الناس لعل وعسى... ولكنها في كل مرة كانت تعود حزينة... لماذا؟ لأن الصفات التي جاءت في الورقة من الصعب العثور

(١) هذا الفصل عبارة عن كتيب صدر سابقاً يحمل عنوان (زوجي العزيز)، ولذا تتنوع موضوعاته.

على صاحبها في أي مكان.. أما الورقة فتقول: «رشيقة القد،
لها عيون الغزلان، وحواجب كهلال شهر رمضان، وخدود مثل
شقائق النعمان، وفم كخاتم سليمان، ووجه كالقمر مدور،
وسيقان سبحان من صوّر... إلخ».

وهكذا اصطدمت مساعي السيدة الوالدة بأحجار
الواقع، حتى دبّ اليأس في قلبك، وارتفع الدم في رأسك،
وصعدت على طاولة الطعام وأنت تصرخ: «يا ناس زوّجوني..
والسلام»...

ثم كان النصيب، ولست أنسى نظراتك لي المليئة
بالإعجاب، وكلمات الغزل التي كنت تنشرها كلما خرجنا
لوجدنا في الأيام الأولى وكأن جمال نساء العالم كلهن قد
تلخص في أنا.. نعم أنا.. ولم تكن أية فتاة «حتى ملكات
جمال العالم» ليحوّلن نظرك عني.. فقد كنت ملكة جمال
قلبك...

فماذا عن اليوم؟ هل غيرت رأيك في؟ هل تغير من ذلك
الجمال شيء؟ أم أنك اكتشفت فجأة أن في العالم من هن
أجمل مني وأحسن قدّاً؟

أعتقد أن المسألة نسبية، فما نراه جميلاً في مجتمعنا، تراه مجتمعات أخرى أمراً قبيحاً، والعكس صحيح.. كما يمكن أن يكون القبيح جميلاً في آن ما ليغدو قبيحاً بعد حين، بل إن حتى الجمال الباهر الذي يعتاده الإنسان لمدة يصبح اعتيادياً بالنسبة له، لأن الجمال أمر نسبي - هذا أولاً - ولأن الإنسان عادة يملّ ما اعتاد عليه - وهذا ثانياً -.

وقد نقل الرحالة عبر الزمان ملاحظات عجيبة حول معيار الجمال في الأمم المختلفة فعند بعض القبائل الآسيوية والأفريقية لا بد من شد الشفتين إلى الأمام مدى الحياة، حتى تصبح الشفتان مثل منقار البط، ويصبح من الصعب على الرجل أن يأكل أو يشرب واقفاً أو جالساً، وإنما نائم.. وقبل أن يزف العريس إلى عروسه، لا بد من شدّ الشفتين - أكثر - والأذنين والأنف ووضع الفلفل الحار في فمه لتتورم شفتاه ولسانه ويرون ذلك ضرورياً لليلة سعيدة... وهي لا تنتهي عادة كذلك.

وفي أندونيسيا والفلبين تخلو أفواه رجال بعض القبائل من الأسنان، فهم يعتقدون أن الشياطين تسكن بين الأسنان، ولذلك وسعوا المسافة بين الأسنان حتى تتساقط

الشياطين، وعندها أزيلت طبقة المينا التي تحمي الأسنان من التسوس، وقبل ذلك أزالوا الأسنان التي في مقدمة الفك، لأن الفم الكامل الأسنان يبدو عندهم كفم الحمار أما الأسنان البيضاء فيرونها تشبه أسنان الكلاب ! ولذا يشبعونها صبغاً بالأحمر أو الأسود !!

وأما في الصين فإن جمال الفتاة في صغر قدميها، فالعريس إذا ذهب يخطب فتاة، أجلسوها وراء ستار وأخرجوا قدميها من القالب الحديدي ويمسك العريس قدمها في كفه، وهي عبارة عن كتلة مشوهة من اللحم والعظام المتداخلة، فإذا أعجبه دغدغها قليلاً فتضحك العروس وأمها والأسرة وتعيد الفتاة قدميها إلى القالب الحديدي... ثم يتم الزواج!! ألف مبروك..

زوجي العزيز.. تذكر أنني ما زلت تلك الفتاة الجميلة التي لم تكن تمل النظر إليها والثناء على حُسنها، ولست أدعي أنني ملكة جمال العالم ولكنني ملكة جمال قلبك.

• أقصر الطرق إلى قلبك:

هل تعتقد فعلاً أن أقصر الطرق إلى قلب الرجل معدته؟

وهل توافق القائلين بأن أكثر ما يريده الزوج من زوجته هو الجنس؟ أنا أعتقد أن علاقتنا أسمى من أن تقرر مصيرها لقمة سائغة أو لذة عابرة.

قرأت في كتاب لأحد الأدباء يقول فيه: «الإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يأكل لأنه ليس جائعاً، ويشرب لأنه ليس عطشان، والذي ليست عنده مواعيد لـرغباته الجنسية ونحن عادة نقول عن الإنسان المسرف في الشراب والطعام والجنس بأنه: حيوان ! وهذه إهانة للحيوان لأن الحيوان معقول في الطعام والشراب.. أما الجنس عنده فله مواسم، ولكن الإنسان أيضاً قادر على أن يعف عن الطعام والشراب والجنس، أي يتوقف عن كل ذلك مع أنه راغب فيه أو يمتنع تماماً».

وهكذا هو تأديب الإسلام للإنسان، رجلاً كان أم امرأة... فالعلاقات الإنسانية لا تحكمها تلك الملذات الآنية، فكيف بواحدة من أقدس العلاقات الإنسانية على مر التاريخ... علاقة الزوجية؟!

ولذا عندما تحدث الله «سبحانه وتعالى» في كتابه الكريم

عن العلاقة الزوجية قال «عز اسمه»: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١)... فأقصر الطرق إلى قلبك يا حبيبي هو قلبك...

عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» أنه قال: (العبد كلما ازداد للنساء حباً ازداد في الإيمان فضلاً)^(٢).

• يا رومانسي:

دخل أحد الأزواج منزله بعد يوم مضمّن من العمل، فوجد إضاءة الردهة خافتة، وعلى طاولة الطعام شمعتان مضاءتان وتتبعث منهما رائحة زكية ملئت المكان عطراً شديداً، واستقبلته زوجته بثياب رقيقة وبأناقة جذابة وزينة خلابة، فقابلها زوجها بابتسامة صفراء وقال:

الزوج: ما هذه المسخرة؟!

الزوجة: لماذا يا حبيبي؟ ألا يعجبك ما أعددت لك؟!

الزوج: ما لك ولهذه الأمور؟ فقط لمزيد من الخسارة

(١) سورة الروم: ٢١.

(٢) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٢٨٧٥.

المالية.. أعدّي لنا لقمة نأكلها... وأضيئي الأنوار في طريقك...

مسكينة هذه الزوجة... ألا توافقني على ذلك يا حبيبي؟ فالرومانسية حالة شعورية يختص بها الإنسان دون سائر المخلوقات، وهي ذات أبعاد تتميز بالصدق ورفاهة الحس والمشاركة الوجدانية، والرقّة والدفء والعاطفة، صحيح أن المرأة عادة تكون أكثر ميلاً للتعبير عن حالة الرومانسية التي تعيشها، وأكثر تقبلاً للتعبيرات الرومانسية التي تصدر عن الرجل، سواء بالكلمة أو بالإيماء أو النظرة، وهذا بما تمتاز به من هذه الناحية فسيولوجياً، إلا أن ذلك كله لا يمنع أن يعيش الزوج شيئاً من هذه الحالة الروحية أو أن يبادر إليها أو يتقبلها على أقل تقدير إن بادرت زوجته إلى ذلك.

الزوجية من حالة الرتبة والروتينية إن مرت بها، وتحقق التوازن السليم والدائم بين العاطفة من جهة وبين جوانب الحياة المادية من جهة أخرى، فتتخلص من الجفاف النفسي والعاطفي الذي قد يصيب أي زوجين تجاه بعضهما البعض.

ومهما مر بنا العمر، وتقادم بنا الزمن، فلن يكون الوقت
قد مضى وولى على قليل من الرومانسية.. يا رومانسي!

• انتبه !

• إذا أحببت أن تستدعيني فاطلبنى بأحسن الأسماء،
وأنت بذكائك تستطيع أن تستكشف الاسم الذي قد يروق لي
أو الصفة التي يمكن أن تستهويني.

وفي الحديث الشريف : (ثلاث يصفين ود المرء لأخيه
المسلم: يلقاه بالبشر إذا لقيه، ويوسع له في المجلس،
ويدعوه بأحب الأسماء إليه)^(١).

• ما أجمل تحيتك لي بالسلام حين أستيقظ من نومي،
وما أحلى توديعك لي حين تغادر المنزل .

كلمات قصيرة وبسيطة ولكنها تشرح صدري وتقربني
منك أكثر وأكثر فلا تبخل عليّ بها مهما طال الزمن، وهل
لي بقبلة وحضن لتحية أو وداع؟

عن أبي جعفر الباقر «عليه السلام»: (إذا دخل الرجل
منكم بيته فإن كان فيه أحد يسلم، وإن لم يكن فيه أحد

(١) الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٦٤٣.

فليقل: السلام علينا من عند ربنا، يقول الله: تحية من عند الله مباركة طيبة^(١).

• أسلوبك الراقي وكلماتك المفعمة بالمحبة والاحترام تملأ قلبي حباً وإخلاصاً لك، وتحكيماً لعلاقتنا، وتقلل من احتمالات الخصام والجدال السلبي.

«من عيوني» «حاضر وممنون».. إلخ، لها مفعول السحر عليّ، وكما قال الإمام علي عليه السلام: (أجملوا في الخطاب تسمعوا جميل الجواب)^(٢)، وأما الكلمات العنيفة والأسلوب الخشن فلن يحققوا سوى الكراهية والخصام وجرح القلب.

وعن الإمام علي «عليه السلام»: (إياك ومستهجن الكلام فإنه يوغر القلب)^(٣).

• وردة.. زجاجة عطر.. رسالة عبر الهاتف مزينة بكلمات الحب.. أو أية هدية بسيطة من حين لآخر، كفيلة بأن تقوي أواصر الحب بيننا، وتبني جسور المودة، وتزيل من القلب أية سخيمة قد تكون عالقة لسبب ما.

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ٨١.

(٢) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ٣، ص ٢٧٤٣.

(٣) الريشهري: ميزان الحكمة، ج ٣، ص ٢٧٣٥.

• كلمات من نور:

• عن النبي «صلى الله عليه وآله»: (قول الرجل للمرأة «إني أحبك» لا يذهب من قلبها أبداً)^(١).

• سئل الإمام الصادق «عليه السلام»: (ما حق المرأة على زوجها؟ قال: يسد جوعتها، ويستر عورتها، ولا يُقَبِّح لها وجهاً)^(٢).

• عن الحسن بن الجهم قال: (رأيت أبا الحسن «عليه السلام» اختضب، فقلت: جعلت فداك اختضبت! فقال: نعم، إنَّ التَّهْيَةَ مما يزيد في عفة النساء، ولقد ترك النساء العفة بترك أزواجهن التَّهْيَةَ، ثم قال: أيسرُّك أن تراها على ما تراك عليه إذا كنت على غير تهية؟ قلت: لا، قال: فهو ذاك. ثم قال: من أخلاق الأنبياء التنظيف وحلق الشعر وكثرة الطروقة)^(٣).

• عن الإمام زين العابدين «عليه السلام» في رسالة الحقوق: (وإن كان حقك عليها واجب فإن لها عليك أن

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٢٣.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢١، ص ٥١٣.

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ١٨٣.

ترحمها لأنها أسيرك وتطعمها وتكسوها فإذا جهلت عفوت عنها^(١).

• ششششششششش :

من الطبيعي أن يحدث الخلاف بين الزوجين، بل التوتر العنيف أحياناً، لكن الأسرة السوية سرعان ما تلملم جراحاتها وتتغلب على هذه الحالة الطارئة وتعود الأمور إلى سابق عهدها.

إلا أن بعض الأزواج يختارون الصمت المطبق كنوع من التعبير عن الاحتجاج أو الغضب أو الانزعاج مما حدث .. صمتٌ متولد من العناد، وناشئ من فكرة خاطئة ملخصها أن: «من أطال الصمت وعاند فهو على الحق، وهو الأقوى وسيرغم الطرف الآخر على التنازل والاعتذار وتقبيل الرأس وذرف الدموع ندماً».

أما الحقيقة فهي أن طول الزمن في القطيعة سيزيد التوتر ويعمق تنافر القلوب وسيعطي نتيجة عكسية ويقلب جو البيت إلى خرابة مهجورة.

(١) الطبرسي: مكارم الأخلاق، ص ٤٢١.

أما الأقوى فهو من يتغلب على نفسه ويبادر للمصالحة ويبدأ بمفاتحة الآخر في الاعتذار ويقدم مصلحة البيت على مصلحته هو، بغض النظر عن كون المخطئ في القضية. وأقوى منه من يبادر ويعترف من الزوجين بأنه كان هو الخاطئ فعلاً وأنه يعتذر عما بدر منه، فإذا قبل الطرف الآخر الاعتذار كان شريكاً في اتخاذ الموقف الصحيح.

عن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»: (... ومن صبر على خلق امرأة سيئة الخلق، واحتسب في ذلك الأجر، أعطاه الله ثواب الشاكرين)^(١).

عن إسحاق بن عمار قال: (قلت لأبي عبد الله «عليه السلام»: ما حق المرأة على زوجها الذي إذا فعله كان محسناً؟ قال: يشبعها ويكسوها، وإن جهلت غفر لها. قال أبو عبد الله «عليه السلام»: كانت امرأة عند أبي عليه السلام تؤذيه فيغفر لها)^(٢).

وعن الإمام محمد الباقر «عليه السلام»: (الندامة على

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٧٤.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٦٩.

العفو أفضل وأيسر من الندامة على العقوبة^(١).

وعن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»: (عليكم بالعفو فإن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، فتعافوا يعزكم الله)^(٢).

• أنت طالق:

حكى أحد المشايخ أن زوجة اتصلت به باكية وهي تقول: هددني زوجي بالطلاق إن لم أعد له كوباً من الشاي الساخن!! فهل قيمتي تتلخص بكوب من الشاي؟

واتصلت أخرى شاكية من زوجها الذي هدها بالطلاق إن لم تستحم بالماء البارد!!

فسألها الشيخ: وماذا فعلت؟

قالت: اضطررت للاستحمام بالماء البارد حفاظاً على زواجنا!!

صحيح أن الطلاق عندنا في فقه أهل البيت «عليهم السلام» لا يتم إلا وفق شروط محددة وصعبة مثل أن يتم أمام شاهدين عادلين، وأن يكون في طهر لم يواقعها الزوج

(١) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٤٠١.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٤٠١.

فيه، وأن يكون الطلاق عن قصد واختيار وما إلى ذلك، بحيث لو انتفى شرط منها لم يقع الطلاق واعتبر لغواً، إلا أن العبث بهذه الكلمة وتكرارها والتهديد بها وتعليقها على أمور تافهة تُشعر الزوجة بأنها ليست ذات قيمة عند زوجها، وأنها لا تعدو أن تكون متاعاً قد يتخلص منه صاحبه متى ما ملّه، أو أحب استبدال آخر به.

والأنكى من ذلك ما لو صدر التهديد بالطلاق أو العبث به أمام الأبناء، مما سينعكس سلباً على ارتباطهم الأسري بالوالدين، وبإحساسهم بعدم الأمن في المنزل، علاوة على إعطاء نموذج سيء لهم من الممكن أن يتكرر مستقبلاً مع زوجاتهم.

وفي الحديث النبوي كما رواه الإمام الصادق «عليه السلام»: (... وما من شيء أحب إلى الله «عز وجل» من بيت يعمر بالنكاح، وما من شيء أبغض إلى الله «عز وجل» من بيت يخرب في الإسلام بالفرقة) يعني الطلاق (ثم قال أبو عبد الله «عليه السلام»: إن الله «عز وجل» إنما وكّد في الطلاق وكرر القول فيه من بُغضه بالفرقة) (١).

• كلمات من نور:

• عن النبي «صلى الله عليه وآله»: (أخبرني أخي جبرئيل - ولم يزل يوصيني بالنساء حتى ظننت أن لا يحلّ لزوجها أن يقول لها «أف» - يا محمد، اتّقوا الله «عز وجل» في النساء، فإنهن عوان) أسيرات (بين أيديكم، أخذتموهن على أمانات الله «عز وجل»)(١).

• عن أمير المؤمنين «عليه السلام»: (إن النساء عند الرجال لا يملكن لأنفسهن ضراً ولا نفعاً، وإنهن أمانة الله عندكم، فلا تضاروهن ولا تعضلوهن)(٢).

• وعنه «عليه السلام»: (.... وأحسنوا لهن المقال لعلهن يحسنّ الفعال)(٣).

• عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»: (رحم الله عبداً أحسن فيما بينه وبين زوجته، فإن الله «تعالى» قد ملكه ناصيتها وجعله القيم عليها)(٤).

(١) البروجردي: جامع أحاديث الشيعة، ج ٢٠، ص ٢٤٩.

(٢) الميرزا النوري: مستدرک الوسائل، ج ١٤، ص ٢٥١.

(٣) الصدوق: الأمالي، ص ٢٧٥.

(٤) الطبرسي: مكارم الأخلاق، ص ٢١٧.

• عن أمير المؤمنين «عليه السلام»: (.... فدارها على كل حال وأحسن المصاحبة لها ليصفو عيشك) ^(١).

• عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»: (..... ومن حَسُنَ بَرُّهُ بأهله زاد الله في عمره) ^(٢).

• عن النبي «صلى الله عليه وآله وسلم»: (خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأهله، وأنا خيركم لأهلي) ^(٣).

• عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»: (هلك بذِي المَرْوَةِ أن يبيت الرجل عن منزله بالمِصر الذي فيه أهله) ^(٤).

• عن النبي «صلى الله عليه وآله»: (..... ومن أضرَّ بامرأة حتى تفتدي منه نفسها، لم يرضَ الله له بعقوبة دون النار، لأنَّ الله يغضب للمرأة كما يغضب لليتيم) ^(٥).

• وعنه «صلى الله عليه وآله»: (إِنَّ مِنْ شَرِّ رجالكم

(١) هادي النجفي: موسوعة أحاديث أهل البيت، ج ٦، ص ٣١.

(٢) الأمين: أعيان الشيعة، ج ٢، ص ٧١.

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٧١.

(٤) الصدوق: من لا يحضره الفقيه، ج ٣، ص ٣٦٢.

(٥) الصدوق: عقاب الأعمال، ص ٣٣٦.

البهات البخيل الفاحش، الآكل وحده، المانع رفده، الضارب أهله وعبدته، الملجئ عياله إلى غيره، العاق بوالديه^(١).

• عن أمير المؤمنين «عليه السلام»: (.....) إِنَّ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بالكف عنهن وإنهن لمشركات. وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيَتَنَاوَلَ المرأةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرِ (الحجر بمقدار الكف) (أو الهراوة فيُعَيِّرُ بها - وعقبه - مِنْ بَعْدِهِ)^(٢).

• عن النبي «صلى الله عليه وآله»: (استوصوا بالنساء خيراً، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ)^(٣) أَي بِمَثَابَةِ الْأَسِيرَةِ.

• وعنه «صلى الله عليه وآله»: (الله سائل كل راع عما استرعاه، حفظ أم ضيّع، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته)^(٤).

• عن الإمام علي «عليه السلام»: (إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ امْرَأَةً تَعْجِبُهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّ عِنْدَ أَهْلِهِ مِثْلَ مَا رَأَى، فَلَا يَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ عَلَى قَلْبِهِ سَبِيلًا، لِيَصْرِفَ بَصَرَهُ عَنْهَا، فَإِذَا لَمْ

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ٣٤.

(٢) الشريف الرضي: نهج البلاغة - الكتاب ١٤.

(٣) البروجردي: جامع أحاديث الشيعة، ج ٢٠، ص ٢٤٦.

(٤) الهيثمي: موارد الظمان، ج ٥، ص ١٣٠.

يكن له زوجة فليصل ركعتين ويحمد الله كثيراً وليصل على النبي ثم يسأل الله فضله فإنه يتيح له من رأفته ما يغنيه^(١).

• عن الإمام علي «عليه السلام» في رسالة لابنه الحسن «عليه السلام»: (لا تملك المرأة من الأمر ما يجاوز نفسها) أي لا تحملها مسئوليات إضافية على مسئولية نفسها (فإن ذلك أنعم) أفضل (لحالها، وأرخى لبالها، وأدوم لجمالها، فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانه)^(٢).

• أنا لم أخدعك :

بصريح العبارة: أنا لم أخدعك ! فلقد تفحصتني بدقة حين خطبتني، وتعرفت عليّ أنا كما هي أنا، فلم أضع شعراً مستعاراً لأخفي صلواً أو شعراً تتكسر أسنان المشط بين ثناياه... ولم أفرغ أطنان الكريمات والماسكرا وأحمر الشفاه على وجهي لأغدو «كعروسة المولد» لا تدري هل هي تضحك أم تبكي... ولم أحش مواطن الضعف والنقص في

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٠٥.

(٢) الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٥١٠.

جسدي بحشوات اصطناعية لأبدو «ست الحسن والدلال»...
فقد كان كل شيء «ربّاني» وعلى طبيعته..

ومسكين ذلك الشاعر العربي الذي وصف عروسه وكيف
أنها خدعته حيث قال:

وما غرّني إلا خضابٌ بكفها

وكحل بعينيها وأثوابها الصفر

وجاءوا بها قبل المحاق بليلة

فكان محاقاً كله ذلك الشهر

وبالمناسبة.. يُقال أن عروسه لما سمعت تلك الأبيات
الشعرية راحت تصرخ وتلطم خديها حتى تجمعت جاراتها
ورحن يضربنه حتى مات! مع أنه لم يقل إلا الحقيقة...

أما أنا فبريئة من ذلك براءة الذئب من دم يوسف..
فلماذا أراك تنبهر بنسوة لو أزلن ما عليهن من أصباغ
ورتوش لأدّرت وجهك عنهن.. فلقد تتبعت نظراتك «المليئة
بالإعجاب» أمام شاشة التلفزيون وفي بعض جولاتنا خارج
المنزل وفي الأسواق، وعين الرجال تزوغ على كل حال «إلا
من عصم الله» ولكن طلبي الوحيد منك أن تتصورهن قبل
«التعديلات» تماماً كما في إعلانات عمليات التجميل، أنف

ضخم، وشفاه معوّجة، وعيون محوّلة، وخدود غائرة، تغدو تحت مبضع فناني الجراحة كأبداع ما يكون... فانظر إليهن كما تنظر إلى الصورة في الإعلان والتي كُتِبَ تحتها «قبل».. فقط إلى هذه الصورة لتكتشف بعدها أنني لم أخدعك !

• ضوء أحمر:

• عن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»: (إذا جامع أحدكم أهله فلا يأتيهن كما يأتي الطير، ليمكث وليتلبّث) (١).

• عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»: (فُضِّلَت المرأة على الرجل بتسعة وتسعين من اللذة، ولكن الله «عز وجل» ألقى عليها الحياء) (٢).

• عن الإمام علي «عليه السلام»: (إذا أراد أحدكم أن يأتي زوجته فلا يعجلها، فإن النساء حوائج) (٣).

• عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»: (إن أحدكم ليأتي أهله فتخرج من تحته، فلو أصابت زنجياً لتشبت به،

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١١٧.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٠٩.

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١١٨.

فإذا أتى أحدكم أهله فليكن بينهما ملاعبة، فإنه أطيب للأمر^(١).

• روي أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» دخل بيت أم سلمة «رضي الله عنها» فشمَّ ريحاً طيبة، فقال: (أتتكم الحولاء^(٢))؟ فقالت: هو ذا هي تشكو زوجها، فخرجت عليه الحولاء فقالت: بأبي أنت وأمي، إن زوجي عني معرض فقال «صلى الله عليه وآله وسلم»: زيديه يا حولاء، فقالت: لا أترك شيئاً طيباً مما أطيّب له به وهو معرض، فقال: أما لو يدري ما له بإقباله عليك، قالت: وما له بإقباله عليّ؟ فقال: أما إنه إذا أقبل اكتنفه ملكان وكان كالشاهر سيفه في سبيل الله فإذا هو جامع تحاتّ عنه الذنوب كما يتحات ورق الشجر، فإذا هو اغتسل انسلخ من الذنوب^(٣).

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١١٨.

(٢) لم يكن العرف الاجتماعي ينزعج من إطلاق مثل هذا اللقب على الأفراد، ولذا نجد لقب الأفطح يطلق على عبدالله ابن الإمام الصادق، ويطلق على أصحابه الفطحية، وهكذا نجد الأشتر لقباً لمالك النخعي، ومثل ذلك الأعمش والأعرج وغير ذلك، حتى أننا نجد بعض الأسر العربية تحمل مثل هذه الألقاب إلى هذا اليوم لأن الأمر كان مقبولاً إلى عهد قريب.

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٠٨.

• عن أبي عبد الله «عليه السلام»: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله «أصبحت صائماً؟ فقال: لا، قال: فأطعمت مسكيناً؟ قال: لا، قال: فارجع إلى أهلِكَ فإنه منك عليهم صدقة»^(١)).

• عن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»: (ثلاثة من الجفاء: ومواقعة الرجل أهله قبل الملاعبة)^(٢).

• فلاشات:

• لا تذلني ولا تهني، فإن من أعظم ما يثير غضب المرأة، ويجعلها تتصرف بصورة لا عقلانية استشعارها بإذلال زوجها لها، بل أشعرنى أنتي معززة مكرمة عندك، وأنتي محبوبتك وقرة عينك، وأنيستك ورفيقة دربك، ولا تتسأن تشني عليّ بين حين لآخر، وخاصة أمام أهلي وأهلك وأمام الآخرين، في حضوري وغيبتي، فإن ذلك يشعرنى بقيمتي عندك.

• اسألني: «ماذا تتمنين؟» بابتسامة صادقة ونبرة محبة،

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٠٨.

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١١٩.

وانتظر مني الإجابة، وكرر سؤالك هذا من وقت لآخر، ولو بعبارات أخرى، مثلاً: «بودّي لو تطلبين مني أمراً لأنفذه لك».. «شبيك لبيك.. زوجك بين يديك»، وهكذا.. قد لا تجد في أمنيّاتي أمراً ممكناً، أو قد تجده صعب التنفيذ، ولكن ثق بأن كلماتك تلك تحببك إلى قلبي.

• اسحرني بكلماتك الجميلة، وأكثر منها، خاصة تلك المحببة إلى نفسي وتفنن في إخراج تلك الكلمات بحرارة وصدق.

• اصغ إليّ إن تحدّثت، ولا تتغافل عني، ولا تتشاغل عن كلماتي، خصوصاً إن رأيتني متحمسة في كلامي حين أشعر بأن الأمر يهمني فقد أكون بحاجة إلى مشورتك أو نصحك... بيّن لي رأيك، أو صحح لي فكرتي، ولا تهملني، فإن استماعك لي يريحني.

• تزيّن لي وتجمّل، كما أفعل أنا لك، فإن لي حقاً عليك، وكما تحب أنت أن تراني في كامل زينتي وأناقتي أحب أنا أن أراك أنيقاً بهندام جميل وعطر جذاب، ومنظر ساحر.

• تقبّل طبيعتي في جوانبها التي لا تتوافق مع طبيعتك،

فقد تنجح في تغيير بعضها، ولكن قد يصعب بل يستحيل أن
تغيّرني بصورة كاملة، وقد لا يكون من الصواب أن تفرض
عليّ ذوقي في الطعام، أو اللون الذي أحبه أو رأيي في أمر
ما، مما لا يتوافق مع ميولك ورأيك، فإن توفيرك لهامش من
الحرية في ذلك، سيوفر عليك الكثير من وجع الرأس الذي
أنت في غنى عنه وبلا طائل سوى أنك تريدني نسخة طبق
الأصل منك، ما لن يتحقق أبداً.

• عندما تتفجر دموعي:

يقولون - يا زوجي العزيز - أن من انحدار دموع المرأة
تتولد أقوى طاقة في التاريخ ! ولا يخفى عليك أن الطاقة قد
تكون مدمرة في بعض الأحيان...

أنا امرأة، فإذا أنا أبكي.. هكذا تعلمنا في الصغر، فمن
العيب أن يبكي الرجل، وأما المرأة.. فهذا شيء طبيعي.

ولكن لماذا أبكي؟ أنا لا أنكر أنني حساسة كوني امرأة،
إلا أن دمعتي لا تنزل من دون سبب، فهل يريحك أن تكون
أنت السبب؟ واسمح لي هنا ان أخبرك ببعض ما يدفعني إلى
البكاء في بعض المواقف:

• عندما تغضب وتبدأ بالصراخ وتحمرّ عيناك وتنتفخ اوداجك، فأقف أمامك ضعيفة حائرة لا أدري ماذا أقول وكيف أتصرف، عندما تنفجر دموعي..

• وعندما أشعر بأنك قد زهدتني ولم تعد تهتم بشأني كما كنت في الماضي، فتدخل البيت وتخرج منه دون أن تعيرني الاهتمام الذي اتوخاه منك، ولا أدري ما الذي غيرك تجاهي، وأجد نفسي وحيدة دون أنيس أبوح له بما يجيش في صدري، عندها تنفجر دموعي...

• وعندما يجتمع شمل الأسرة بحضور والديك وإخوتك، فتعيب عليّ جانباً من سلوكي، أو جهلي ببعض الأمور، أو ذوقي في اختيار الألوان أو الثياب وما إلى ذلك، فيجبرني احترامي لك ولأسرتك أن أمتنع عن الدفاع عن نفسي، أو تعجزني نظراتهم المليئة بالعطف أو الاستهزاء، عندها تنفجر دموعي...

• وعندما تمر ساعات الليل الطويلة وانت بعيد عني، تلهو مع أصدقائك في «الديوانية» وتتسامر معهم، حتى إذا عدت إلى المنزل عدت في ساعة متأخرة متعباً مجهداً، تبحث عن

الفراش لتلقي بجسدك عليه وتخلد إلى نوم عميق، وكانك قد تخليت عني - أنا - نصفك الآخر، عندها تتفجر دموعي..
زوجي العزيز.. دمعتي قد تكون صرخةً وقد تكون قهراً،
وقد تكون احتجاجاً، وقد تكون نقمة.. فلا تطلقها...

• إن حكى الشرع:

• هو: لن تخرجي من المنزل... فالشرع لا يجيز لك ذلك إلا بإذني... ولن تخرجي ما حييت.

• هي: احضر لك خادمة تطبخ وتكنس وتنظف وتهتم بالأطفال، فالشرع لم يجعلني خادمة عندك، وليس من واجباتي الشرعية كزوجة أن أفعل شيئاً من ذلك.

• هو: لن أوفر لك سوى ثوب واحد للشتاء وآخر للصيف...
هكذا وصف الشرع الحد الأدنى من حقك في الثياب كزوجة.

• هي: أريد أجرتي على رضاع أطفالنا، وإلا دعهم للحليب المجفف، فأنا غير مسئولة عن ذلك أمام الله.

ولن تنتهي القصة... فأين الخطأ؟

يكمن الخطأ في خلط الأمور وسوء فهم الأحكام

الشرعية، فالحكم الأصلي والصفة الرئيسية التي تحكم العلاقة الزوجية ما في قوله «تعالى»: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ «سورة الروم: ٢١»، والذي يعني التفاهم والبحث عن الأصلح وتأمين أسباب السعادة وبذل كل طرف ما في وسعه من أجل تأسيس أسرة مترابطة متحابّة.

وأما الأحكام الشرعية المرتبطة بخروج الزوجة من المنزل وقيامها بمهام رعاية شؤون البيت من طبخ وتنظيف ورضاع، وتلك المرتبطة بواجبات الزوج من نفقة وما إلى ذلك، فكلها جاءت لتضع الحد الأدنى من الحقوق والواجبات المتبادلة بين الطرفين، والتي يلجأ إليها عادة عند حدوث الاختلاف والنزاع بينهما، كما يمنع الزوجان من النزول دونهما، لأنها تمثل المستوى الأقل من صور العلاقة الزوجية والشؤون الأسرية، ويمكن أن نعبر عنها بالحالة الثانوية أو الاستثنائية للعلاقة القائمة بين الزوجين، وإلا فالأصل هو التفاهم وتحمل كل طرف لمجموعة من المهام لتتكامل الصورة بعد ذلك في إطار المحبة والمودة.

وقد روى عن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» أنه قال: (تقاضى علي وفاطمة إلى رسول الله «صلى الله عليه

وآله» في الخدمة، ففضى على فاطمة «عليها السلام» ما دون الباب وقضى على علي «عليه السلام» بما خلفه، قال: فقالت فاطمة: فلا يعلم ما دخلني من السرور إلا الله بإكفائي رسول الله «صلى الله عليه وآله وسلم» رقاب الرجال^(١).

• مسائل فقهية :

• لا يجوز للرجل إغفال حاجة زوجته إلى الاستمتاع المطلوب من قبلها ما لم يمنعه مانع ولو عادي من أموره التي يعتاد من مثله الانصراف إليها، إلا أن يسبب انصرافه لمثلها حرجاً شديداً عليها أو خوفاً من وقوعها من الحرام، فتقدم رغبتها.

• يجوز للمرأة أن تستمتع بزوجها بجميع الاستمتاع التي يرغبانها، وكما يجوز لها الاستمتاع به عن قرب بالمباشرة، فإنه يجوز الاستمتاع به عن بعد بمثل النظر إليه بشهوة أو بمحادثته بالهاتف والتلذذ بسماع صوته.

نعم يحرم الاستمتاع في الحالات التي ذكرناها في المسائل الفقهية تحت عناون (زوجتي العزيزة).

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة، ج ٢٠، ص ١٧٢.

• يجب على الرجل الوفاء للمرأة بحقوقها في الاستمتاع بالنحو المذكور سابقاً، فإن تمردَّ عليها فمَنعها حقها مع قدرته على الوفاء، تهاوناً بحقوقها أو نكاية فيها، أثم وعصى، وجاز للزوجة أن تسلك في علاج نشوزها عدة طرق:

الأول: أن تسلك سبيل الأخلاق الفاضلة المناسبة لحالتها من الصبر والحلم وال مداراة والتودد نحوها، وذلك في إطار حرصها على معرفة الأسباب وإزالتها بالحكمة وروح المحافظة على استمرار الحياة الزوجية.

الثاني: حيث أن نشوز الزوج معصية، فإنه يجب على الزوجة أن تنهى زوجها عن المنكر وتأمّره بالمعروف من خلال أحكامهما المناسبة لحالتها، ومن خلال تقديرها لمدى تأثيره بالأسلوب الناجع الذي يخدم هدفها.

الثالث: أن ترفع أمرها إلى الحاكم الشرعي وتشكوه له، وعليه أن يستدعيه ويأمره بإنصافها وأداء حقها، فإن لم يرتدع تتخير الزوجة بين الصبر عليه وبين طلب الطلاق، فإن طلقها وإلا طلبت من الحاكم الشرعي ذلك، فيطلب الحاكم منه أن يطلقها فإن لم يفعل طلقها الحاكم الشرعي.

• يجب على الزوج بذل ما تحتاجه المرأة في مختلف مجالات حياتها الشامل للطعام والشراب والملبس والمسكن ولوازم التجميل والنظافة ومتطلبات ضيافة زوارها من أرحامها ونحوهم، وكذا لوازم خدمتها من خدم وآلات، إضافة إلى الأثاث التي تحتاجه في منامها وجلساتها وسائر أعمالها وحاجاتها. والمعياري في كون الشيء حاجة لها وكذا في نوعه ومقداره هو ما تعارف عليه الناس في مجتمعها وبلدها لمن هو في مثل شأنها، والمراد (بالشأن) هو: حال الزوجة من حيث العمر والثقافة والجاه، وهي الأمور التي تقتضي اختلاف نوع ومقدار ما يسد حاجتها من تلك الأمور التي ذكرناها، فقد يكفي لفتاة تعيش في الريف بالنوع المتواضع من المسكن والأثاث، في حين لا يكفي به لفتاة نشأت في المدينة، وهكذا نحوه في سائر المجالات التي تختلف باختلاف الناس والبلدان اختلافاً كبيراً. هذا، ومما يعتبر من النفقة الواجبة مصاريف الولادة ومصاريف العلاج من الأمراض.

• لا يجب على الزوج أن يتحمل الديون التي على زوجته ولا نفقات تعلمها لعلم أو مهنة، ولا تحمل ما قد يجب عليها

من نفقة تجاه أبويها أو أبنائها من زوج آخر، ولا ما يثبت عليها من فدية أو كفارة أو أرش جنائية أو حج واجب عليها، فضلاً عن نفقات الأعمال والقربات المستحبة كزيارة العتبات المقدسة ونحوها.

مصادر الكتاب

١. القرآن الكريم
٢. الكتاب المقدس
٣. الصحيفة السجادية: الإمام زين العابدين
٤. الارتقاء بالذات: سيد محمد شلبي
٥. الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن علي العسقلاني
٦. الأمالي: محمد بن علي الصدوق
٧. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار: محمد باقر المجلسي
٨. تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن عمر الدمشقي (ابن كثير)
٩. تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة: محمد بن الحسن الحر العاملي
١٠. جامع أحاديث الشيعة: حسين البروجردي
١١. الجامع الصحيح (السنن): محمد بن عيسى الترمذي
١٢. جمع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير الطبري
١٣. السنن: سليمان بن الأشعث السجستاني (ابوداود)
١٤. شرح نهج البلاغة: عبد الحميد بن هبة الله بن أبي الحديد
١٥. الطبقات الكبرى: محمد بن سعد الزهري
١٦. فقه الشيعة: محمد حسين فضل الله
١٧. الكافي: محمد بن يعقوب الكليني

مصادر الكتاب

١٨. لسان العرب: محمد بن مكرم الإفريقي (ابن منظور)
١٩. مجمع البيان في تفسير القرآن: الفضل بن الحسن الطبرسي
٢٠. المحبر: محمد بن حبيب البغدادي
٢١. المسائل المنتخبة: علي الحسيني السيستاني
٢٢. مستدرک وسائل الشيعة: ميرزا حسين النوري
٢٣. المصنف: عبد الرزاق بن همام الصنعاني
٢٤. مكارم الأخلاق: الحسن بن فضل الطبرسي
٢٥. من لا يحضره الفقيه: محمد بن علي الصدوق
٢٦. من وحي القرآن: محمد حسين فضل الله
٢٧. مناقب آل أبي طالب: محمد بن علي بن شهر آشوب
٢٨. موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان: علي بن أبي بكر الهيثمي
٢٩. ميزان الحكمة: محمد محمدي ريشهري
٣٠. نسب قریش: المصعب بن عبد الله الزبيري
٣١. نهج البلاغة: محمد بن الحسين بن موسى (الشريف الرضي)

• مواقع الإنترنت:

1. arabic.bayynat.org
2. www.aljazeera.net
3. www.bbc.com/arabic

